
الأدب العالمي للناشئين
أبيض الناب
تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية
جاك لندن


أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

أبيض الناب

تأليف

جاك لندن

ترجمة

محمد رمضان داود





أبيض الناب

جاك لندن

White Fang

Jack London



الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: سيلڤيا فوزي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٠٢٦٦ ٢

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٠٦.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١١.

المحتويات

الفصل الأول

كلب سابع

لم يكن ثمة شيء غير اللون الأبيض ممتدًّا على مرمى البصر، فقد كان الثلج والجليد يغطيان كل شيء أميالًا وأميالًا، وبدا المكان أكثر وحشة بسبب الأشجار التي أسقطت عنها الرياح الشديدة أوراقها. لذلك كان من الصعب أن يصدق المرء أن هناك من يقدر على العيش في ذلك المكان؛ أي في بَرِّيَّة الشمال الموحشة القاسية.

كان قطيع من الكلاب يجر مزلجة على طول النهر المتجمد في بطء شديد، وكان هناك شخص يسير أمام الكلاب وآخر خلف المزلجة، وكانوا جميعًا يتحركون حركة بطيئة؛ إذ كان السير على هذه الأرض ضربًا من الصعوبة.

كان الرجلان يرتديان أحذية ثلوج واسعة ومعاطف كبيرة ثقيلة وقبعات وقفازات من الصوف، وقد تجمدت أنفاسهما في الهواء لتغطي رموش أعينهما ووجنتيهما بطبقة من البلورات الثلجية، ولم تكن هناك أي أصوات غير أصوات وقع أقدامهما على الثلج. شعر الاثنان بالوحشة الشديدة في هذه الأرض البيضاء القفار، وبدآ يشعران بالقلق من أنهما قد لا يصلان مطلقًا إلى حدود المدينة التالية.

قرعت آذانهما صرخة خافتة في ذلك الهواء الساكن، ثم لم تلبث أن تلاشت تدريجيًّا في الوقت الذي تصاعد فيه صدى صرخة أخرى. أدار الرجل الذي يقود الركب رأسه لينظر إلى صديقه. كانت الصرخات آتية من مكان ما خلفهما.

قال هنري الذي يقود الركب: «أعتقد أنها تتعقبنا يا بيل.»

رد بيل وقد بدا عليه القلق: «أعلم ذلك. اللحوم هنا نادرة للغاية، فأنا لم أر أرنبًا منذ أيام.»

واصل الرجلان السير في صمت، ينصتان إلى عواء الذئاب من خلفهما، وقد أدركا أن هناك أسبابًا كافية للشعور بالفزع؛ فقد كانت مجاعة شديدة تجتاح البرية.

كان قطيع من الذئاب البرية يجوب الأرض منذ أسابيع بحثًا عن الطعام، وكان فرد جديد في ذلك القطيع هو من أدرك وجود الرجلين وفريق الكلاب الذي يجر المزلجة، وكان هذا الفرد كلبة حمراء قد تركت قرية الهنود الحمر التي تنتمي إليها عندما بات الطعام نادرًا، لذلك كان مرأى البشر ورائحتهم مألوفة لها.

كان النهار قصيرًا جدًّا في فصول الشتاء في الشمال، ولما أرخى الليل سدوله، قاد الرجلان الكلاب والمزلجة قرب بعض الأشجار، وأوقدا النار بعد ذلك، ثم بدآ في تناول العشاء. كان بيل وهنري قد سافرا في رحلات عدة على طول ذلك النهر، وكانا معتادين على السفر أثناء ساعات النهار القليلة وعلى نصب المخيمات إذا جنَّ الليل. مع ذلك كله، كانت هذه المرة مختلفة عن سابقاتها، فقد زاد قلقهما في هذه الرحلة بعينها لمّا كانت الذئاب تتعقبهما عن قرب فيها.

تجمعت كلاب المزلجة على الجانب الآخر من النار وقد شرع كل منها يهِرُّ في وجه الآخر ويدفعه دون أن يبدي أي منها أي نية للهرب في جنح الليل، فقد أدركت جميعها أن النار هي الدفء والأمان داخل البرية.

بعد أن أطعم بيل الكلاب، عاد ليتناول عشاءه. ناوله صديقه طبقًا من الفاصوليا.

قال بيل: «هنري، كم عدد الكلاب التي معنا؟»

رد هنري: «ستة. لمَ؟»

– «أخرجت ست سمكات لإطعامها لكنها لم تكن كافية لإطعام الكلاب جميعًا.»

قال هنري: «لا بد أنك أخطأت في عدّ السمك.»

قال بيل: «لا، لا، كان بحوزتي ست سمكات، وكانت هناك سبعة كلاب. وقد رأيت واحدًا منها يهرب بعد أن أخذ سمكة.»

– «إذن فأنت تظن أنه كان …»

قطع كلام هنري صرخة أخرى دوت في قلب الظلام، فجلس الاثنان في سكون تام منصتين إلى الصرخة. بدأت علامات الهلع تظهر على كلاب المزلجة في الوقت الذي أحاطها فيه عواء الذئاب. ألقى بيل بمزيد من الخشب إلى النار.

أشار هنري إلى الظلام: «فأنت تظن أن الكلب السابع كان ذئبًا من ذاك القطيع؟ لا شك أنه شديد الشجاعة ليقترب منا على هذا النحو.» أومأ بيل برأسه قائلًا: «لكنه لم يبدُ ذئبًا في عيني، بل أشبه بالكلاب منه إلى الذئاب.»

قال هنري: «كلب! وما الذي يفعله كلبٌ هنا؟»

شرع بيل في الرد، لكن أوقفه فجأة ظنه أنه رأى شيئًا ما يتحرك على مقربة شديدة من ضوء النار. دفع بيل هنري بكوعه ليجذب انتباهه إليه، ثم كان أن أطال الاثنان النظر في الظلام ليريا عيونًا — أزواج كثيرة من العيون — تحدق فيهما.

كانت الكلبة الحمراء تتقدم قطيع الذئاب البرية، وكانت قد قضت ساعات عديدة بالقرب من نار المخيم، وذاقت شعور الدفء والراحة الذي تبعثه النار فيمن يقترب منها. مع ذلك، كان لهب النار يبث الرعب في قلوب الذئاب؛ فقد كانت النار مرادفًا للخطر داخل البرية؛ بل كانت شيئًا يجب تجنبه تمامًا. غير أن ذئاب ذلك القطيع كانت تتضور جوعًا، فحذت جميعًا حذو الكلبة الحمراء، وحاولت أن تقترب من النار.

قال هنري: «تأكد من طلقات الرصاص يا بيل. انظر كم بقي منها معنا؟»

رد بيل: «ثلاث، بقي معنا ثلاث طلقات فقط.» أدرك الرجلان أنهما في مشكلة كبيرة دون أن ينطق أي منهما ببنت شفة.

حاول الاثنان أن يظلا مستيقظين لكنهما كانا منهكين، وقد أدركا كذلك أن اليوم التالي سيكون على الدرجة نفسها من الصعوبة وأنهما سيحتاجان إلى قدر كبير من الطاقة لمواصلة السفر فوق الجليد. لذلك، دخل كل منهما حقيبة نومه، وناما وهما على يقين من أن نار المخيم ستبقي الذئاب بعيدًا عنهما.

الفصل الثاني

حادثة

استيقظ بيل مع انكسار أول خيط لضوء الفجر، وبعد أن تفقَّد الكلاب سريعًا، وَكَز هنري ليوقظه.

على الفور لاحظ هنري علامات الانزعاج على صديقه، فسأله: «ما الخطب؟»

قال بيل: «سأخبرك. كم عدد الكلاب التي قلت إنها بحوزتنا؟»

– «ستة.»

قال بيل: «خطأ.»

سأله هنري: «سبعة ثانية؟»

– «بل خمسة. قد اختفى واحد منها.»

شعر هنري بقلق شديد: «هل تمكَّنَت منه الذئاب؟»

هز بيل كتفيه: «أظن ذلك.»

نهض هنري من مكانه ليتفحص الأمر، فوجد أن بيل محقٌّ؛ قد اختفى واحد من كلابهما، ولديهم الآن خمسة كلاب فقط لعبور الثلج والجليد.

أعاد الرجلان حزم أمتعتهما على المزلجة سريعًا، وانطلقا مع الكلاب، واقتصد الاثنان في الكلام ليحفظا طاقتيهما للعمل الجاد. وعلى الرغم من وعورة الأرض، أحرزا تقدمًا ملحوظًا وسريعًا. انقلبت المزلجة مرات عدة، لكنهما رفضا أن يتوقفا، فلم يكونا يرغبان في قضاء ليلة أخرى في البرية. في تلك الأثناء، وقعت لهما كارثة، وكانا لا يزالان بعيدين عن القرية التالية.

أثناء قعقعة المزلجة فوق الثلج والجليد، انقلبت مرة أخرى، وكُسرت إحدى زلاجاتها، ولم يتمكن هنري وبيل من إصلاحها دون وجود الأدوات المناسبة، ولم يكن أمامهما سوى خيار واحد هو مواصلة السير، ولكن على الأقدام. استحال عليهما أن يحملا كل

المؤن التي كانت بحوزتهما أو أن يجراها، لذلك جمعا كل الأشياء التي لم يتمكنا من حملها في صرَّة، وعلقاها عاليًا على إحدى الأشجار، فربما يتسنى لهما العودة فيما بعد، أو ربما استفاد منها شخص آخر. جرت العادة أن يترك الرجال كميات كبيرة من المؤن والأطعمة في مكان ما ليأخذوها في رحلة العودة. كتب هنري رسالة موجزة تقول: «خذ كل ما تحتاج إليه، فقد تركنا ما لم نستطع حمله.»، ووضعها داخل الطرف العلوي من الصرَّة. بعد ذلك واصل بيل وهنري رحلتهما على الطريق المائية المتجمدة بعد أن أمسكا بأزمَّة الكلاب الباقية معهما.

ظل أحد الكلاب واسمه سبانكر يحاول أن يعدو بعيدًا، لكن بيل كان ممسكًا به جيدًا، وقال: «شيء ما يدفعه بعيدًا.» جال بيل بنظره في الأرض المحيطة بهما، ولم يكن هناك كثير من ضوء النهار، ولم يكن بيل يرغب في قضاء ليلة أخرى يربض فيها أمام النار.

توقف بيل فجأة، ثم همس إلى صاحبه: «هنري، انظر هناك!»

كانت كلبة حمراء تتبعهما من بعيد، وتوقفت عندما توقفا منتظرة أن ترى ما سيحدث بعد ذلك.

قال هنري: «تبدو شديدة الاحمرار مما ينفي أن تكون ذئبًا، فضلًا عن أنها كبيرة الحجم أيضًا.»

رد بيل: «أرى أنها أقرب إلى الكلاب منها إلى الذئاب.» وكان محقًّا. فعلى الرغم من أنه لم يقترب منها كثيرًا، فقد عرف من النار أنها تلك الكلبة الغريبة نفسها. ولم تظهر عليها أي علامات للقلق من وجودها حولهما، فجعل بيل يتساءل هل سبق أن عاشت هذه الكلبة مع بشر من قبل، إذ بدت أليفة جدًّا مقارنة بحيوان يعيش في البرية.

في الوقت الذي مكث فيه الجميع في حالة ترقب، تحيَّن سبانكر الفرصة وشد الحبل بسرعة فتحرر منه وعدا ناحية الكلبة الحمراء. اقترب كل منهما من الآخر في بطء وإذا هما يتحركان في دوائر ويتشمم كل منهما الآخر. خفض سبانكر رأسه وقت اقترابها منه، وبدا كل شيء بريئًا، لكن أدرك الرجلان أنه ستكون هناك مشكلة.

وفي سرعة البرق، أحاط قطيع الذئاب بسبانكر، فشرع في النباح وهمَّ بعضِّ الذئاب، لكنها واصلت الاقتراب منه. عندئذ رفع بيل بندقيته، وأرسل طلقة في الهواء تفرقت على إثرها الذئاب لكن سبانكر عدا معها. ناداه الرجلان لكنه كان قد اختفى، وأخذ صوت نباحه يتلاشى شيئًا فشيئًا قبل أن يتوقف تمامًا، ولم يكن ثمة ما يمكنهما فعله.

قال هنري: «ظننت أن نصيب سبانكر من الفهم أكبر من ذلك.»

رد بيل: «لا، فدائمًا ما كان كلبًا غبيًّا.»

– «بدت هذه الذئاب شديدة النحافة وكثيرة العدد أيضًا.»

– «أعرف ذلك، وهذا معناه أنها ستعود قريبًا للبحث عن الطعام.»

شق الرجلان طريقهما عبر الثلج بقية اليوم. كانت الشمس قد غربت تمامًا بحلول الساعة الثالثة، لذلك قرر هنري وبيل أن ينصبا مخيمًا، وقد أدركا أن أزيز النار قد يكون ملاذهما الوحيد، فقد كانت الذئاب تزداد جرأة مع ازدياد حاجتها إلى الطعام.

الفصل الثالث

الهجوم

كان هنري يقلب الفاصوليا على النار عندما سمع فجأة هرير كلاب المزلجة ونباحها، فراح يتفقد الأمر وشاهد الكلاب منتشرة حول النار. لكنه عندما اقترب من الكلاب، اكتشف أنهما قد فقدا كلبًا آخر. حينئذ لحق به بيل عند النار.

قال هنري: «قد اختفى فروج، وكان أقوى كلب في المجموعة.»

أطل بيل بنظره في الظلام باحثًا عن حركة أو عيون قريبة من المخيم، ليبدأ قطيع الذئاب عندها في العواء ثانية باثًّا مزيدًا من الرعب في قلوب كلاب المزلجة. كانت الذئاب تنتشر في كل مكان حول المخيم الصغير، فأدرك بيل أنهما محاصران. كان الاثنان في خطر كبير. قال بيل: «يبدو أننا لن نهنأ بنوم هذه الليلة.»

تبادل هنري وبيل نوبات الحراسة والنوم. كانت تلك الليلة شاقة للغاية، وشعر كلا الرجلين بقلق شديد؛ فقد كان أي صوت يصيبهما بالفزع. راحا ينظران حولهما في كل مرة يئن فيها أحد كلاب المزلجة أو يتحرك. في بداية الأمر، هرب واحد من كلاب المزلجة ثم تلاه آخر، ولم يتسنَّ لهما أن يعرفا هل لَحِق هذان الكلبان بقطيع الذئاب أم وقعا فريسة له أم شقا طريقهما داخل البرية. إلا أنهما تمنيا أن يتمكن الكلبان من الوصول إلى القرية التالية.

كانت الكلبة الحمراء هي أول من قفز ناحية النار من قطيع الذئاب، ثم حذت الذئاب الأخرى حذوها للمرة الثانية، إذ شرعت واحدًا تلو الآخر تهاجم الرجلين محاولةً إسقاطهما على الأرض.

لم يتزحزح هنري وبيل من مكانيهما وجذبا عصيًّا من النار، ولوَّحا بها في وجه الحيوانات المنقضة عليهما، في المقابل تعالت أصوات عواء الذئاب وقت اصطدام لهب العصي المشتعلة بها، غير أن ذلك أبعدها مدة قصيرة فقط. ومع حلول الليل، تكرر

مجيء الذئاب، وباتت أكثر قربًا من الرجلين، وكانت كل قفزة منها ناحية الرجلين تقابل بضربة عصا.

أطلق بيل الرصاص على أحد الذئاب، لكنه لم يصبه، وفكر أنه من الأفضل ألا يفقد طلقة رصاص أخرى — آخر طلقة معهما! — في الظلام.

وضع هنري قطع الأخشاب المشتعلة في دائرة، ثم أمسك بذراع بيل وجذبه إلى داخل حلقة النار. كان الوقوف داخل حلقة النار يبث حرًّا شديدًا، لكنه كان بلا شك أفضل من مقاومة الذئاب بواسطة العصيّ. واصلت الحيوانات الجائعة محاولاتها للوصول إلى الرجلين، لكن لهب النار كان يدفعها إلى الوراء في كل مرة.

في الصباح، كانت الذئاب لا تزال متوارية في الجوار، وكان آخر كلبين من كلاب المزلجة قد هربا، وبات الرجلان بمفردهما الآن.

وقفت الكلبة الحمراء بعيدًا عن ذلك كله، وقد رأت الذئاب تطوِّق الرجلين أو تقفز ناحية النار. وبدا أنها تدرك أن شيئًا ما سيقع قريبًا. فإما أن يحاول الرجلان الهرب أو ينجح أحد الذئاب في اختراق دائرة النار.

الفصل الرابع

النجاة

أخذ لهب النار يخبو شيئًا فشيئًا، ولم يكن هناك المزيد من الخشب. قال هنري: «نفد الخشب.» وأشار أثناء ذلك إلى أشجار الصنوبر التي تقف على بعد عشرين قدمًا من مكان المخيم.

أومأ بيل، ووجه بندقيته إلى مجموعة من الذئاب، وأطلق الرصاص. وتمكن هذه المرة من إصابة أحد الذئاب في قدمه الخلفية إصابة خفيفة. تعثر الذئب المصاب في مشيته، وأخذ يعوي من الألم في الوقت الذي لاذت فيه بقية الذئاب بالفرار. هرع هنري وبيل ناحية أشجار الصنوبر، وكان عدوهما هذه المرة أسرع من أي مرة عَدَوَا فيها من قبل في حياتهما. ولم تمض إلا ثوانٍ حتى كان كل منهما متسلقًا إحدى الأشجار ينظر إلى الذئاب وهي تحوم حولهما وتعوي من خلفهما.

بدأت الذئاب يقاتل كل منها الآخر، وكانت الكلبة الحمراء تهِرُّ وتكشر عن أنيابها في وجه كل من يقترب منها. أخذ ذئب رمادي ضخم — هو قائد القطيع — يعض أعقاب الذئاب الأخرى، ويدفعها لإيجاد طريقة للوصول إلى الرجلين. في الوقت نفسه، ظل هذا الذئب يبعدهم عن الكلبة الحمراء، لكن لم تكن هذه البادرة منه ذات ضرورة؛ فلم يكن أي من الذئاب يقدر على الاقتراب منها.

بعد ساعات سمعت الذئاب شيئًا ما على بعد. كانت الكلبة الحمراء هي أول من توقف وأنصت إلى الصوت، وسرعان ما أدركت ما في الأمر، وعدت في الاتجاه المعاكس، وتبعها قطيع الذئاب. تساءل هنري وبيل ما الذي أخاف قطيع الذئاب.

اقترب من المكان ستة رجال على مزلجات، ولم يكن بمقدور هنري وبيل أن يتخيلا كم هما محظوظان. وعلى الفور صاح كلاهما، ولوَّحا للرجال.

صاح هنري: «هنا بالأعلى. لقد أتيتم في الوقت المناسب تمامًا!»

توقفت المزلجة أسفل الأشجار، وصاح أحد الرجال الستة: «ما الذي تفعلانه هناك بالأعلى؟»

قال بيل في صوت المتلعثم: «كلل ... بة حمراء. قد أغوت كلاب المزلجة واستدرجتهم بعيدًا، وحاول قطيع من الذئاب النيل منا.»

ساعد الرجال الستة هنري وبيل على النزول، واحتضن الرجلان منقذيهم. مع ذلك، لم يكن هناك متسع من الوقت لطرح الأسئلة والإجابة عنها. غلب النعاس الرجلين على نحو شبه فوري بعد أن أنهكتهما المغامرة. وفي الوقت الذي انشغل فيه الرجال الستة بنصب المخيم وتناول الطعام، جعل بيل وهنري يغطان في نوم عميق فوق البطاطين.

كان قطيع الذئاب في ذلك الوقت قد ابتعد فعلًا عن المكان. سلكت الذئاب مسلكًا جديدًا، وكلها أمل في أن تلتقط رائحة صيد آخر في البرية المتجمدة. وفي الوقت الذي علا فيه القمر في السماء، شقت الذئاب طريقها في سلاسة بين الأشجار. انتهت قصة هنري وبيل، لكن قصة الكلبة الحمراء والذئاب لا تزال في بدايتها.

الفصل الخامس

اختيار رفيق

عاد قطيع الذئاب أدراجه على طول ضفة النهر ومنها إلى الغابة، مستمرًّا في البحث عن الطعام، لكن حدة المزاج كانت قد وجدت طريقها بين الذئاب، حتى إن كلًّا منها شرع يكشر عن أنيابه في حنق في وجه الآخر.

كانت الكلبة الحمراء أسرع من الكلاب الأخرى في اللجوء إلى العض والنباح في وجه كل من يقترب منها أكثر مما يلزم، وعلى الرغم من أنها لم تكن القائد، فقد شغلت مكانة خاصة داخل القطيع. فقد كانت أول من لاحظ الرجلين وكلاب مزلجتهما، وهي من قاد الذئاب أيضًا إلى المخيم والنار، ومن أسرع بتحذير الذئاب عندما وصل الرجال الآخرون بفضل ما تتمتع به من يقظة.

كان قائد القطيع ذئبًا رماديًّا ضخمًا، انتصر في العديد من المعارك، وكانت لديه ندوب تدل على ذلك، بل زاد على هذا أنه فقد عينه اليمنى. كان الذئب الأعور يهِرُّ في وجه أي ذئب أصغر سنًّا يحاول تخطيه أو الاقتراب منه أكثر مما ينبغي. مع ذلك، كانت الكلبة الحمراء تأخذ مكانها بجواره وكأنه مكانها الشرعي. ولم يكن الذئب يهِرُّ أو يكشر عن أنيابه في وجهها، فقد بدا في حقيقة الأمر شديد السعادة لذلك، بل كان يلاطفها وقت عدْوِهما فوق الثلج.

سعى ذكور آخرون في قطيع الذئاب إلى لفت انتباه الكلبة الحمراء، لكن الذئب الأعور أجبرهم جميعًا على التراجع، فكان أي ذكر يتحدى القائد يخاطر بالدخول في معركة معه. وقد سعى كثيرون إلى انتزاع القيادة من الذئب الأعور أو الفوز بحب الكلبة الحمراء، لكن أحدًا منهم لم يفلح في ذلك، وكان ذلك كله جزءًا من نواميس البرية. فالذئب الأعور كان قد جدّ في العمل والقتال لكي يصير قائد القطيع، ولم يكن ليتخلى عن منصبه في سهولة.

ذات يوم وصلت الذئاب إلى أرض خالية، وتوقف الذئب الأعور فجأةً وتبعه في ذلك بقية القطيع منتظرين أن يروا ما سيفعله بعد ذلك. كان ظبي ضخم يقف على بعد بضع مئات من الأمتار، وعلى الفور شرع أفراد القطيع في وضع التشكيل المناسب واستعدوا للصيد. حاصرت الذئاب جميعها — ومعها الكلبة الحمراء — الحيوان الضخم، وعدت نحوه. كان وزن الظبي ثقيلًا يزيد عن ثمانمائة رطل، فكان ذلك كافيًا لكي يَطعَم الجميع. في نهاية الأمر، انتهت المجاعة، وعادت الذئاب حينئذٍ إلى حياة اللعب واللهو.

بدأت الذئاب في الانفصال بعضها عن بعض، فقد شرع أفراد القطيع في مغادرة القطيع في ثنائيات من ذكر وأنثى. وهنا حان الوقت الذي يتحدد فيه رفيق الكلبة الحمراء. بيَّن الذئب الأعور في وضوح شديد أنه لا ينبغي لأي ذئب آخر أن يسعى إلى ذلك ولو من باب المحاولة. فعندما مس ذئب شاب بأنفه رقبة الكلبة الحمراء، سرعان ما انقض عليه الأعور، ولم يستمر القتال طويلًا، إذ لاذ الذئب الشاب بالفرار، وعاد الأعور إلى الكلبة الحمراء وقد حاز ولاءها عن جدارة.

كانت البرية بيئة قاسية، ولم تكن القوانين التي تحكم الذئاب مشابهة لتلك القوانين التي تحكم البشر. والذئاب لم تناقش هذه القوانين أو حتى تفهمها، لكنها عرفت أن عليها الانصياع لها.

والآن بعد أن صار الذئب الأعور والكلبة الحمراء وحدهما، عثرت الكلبة على الطعام ثانيةً، فقد قادت الذئب إلى إحدى قرى الهنود الحمر حيث تمكنا هناك من الإغارة على حوانيت الأطعمة وفخاخ الأرانب. وقد علَّمت الأعور كيف يشد الحبال من الأشجار ويمسك بالأرانب من الفخاخ. وكانت الكلبة تعرف كيف تسرق اللحم المطهو على النار وأين تُحفظ الأسماك بالقرب من الخيام. كانت روائح المخيم ومشهده غريبة على الذئب، لكن التفاصيل كافةً كانت معروفة للكلبة. وقفت الكلبة على مقربة من المخيم تصغي وتنتظر شيئًا أو شخصًا ما، ثم أرسلت أنةً رقيقةً عندما رأت الرجال والنساء الموجودين في المخيم يجلسون حول النار وينخرطون في الحديث. ومع هذا عادت الكلبة الحمراء إلى الغابة بعد أن حثها الأعور كثيرًا على ذلك.

بعد مرور بعض الوقت، بدأت الكلبة الحمراء تبطئ السير، وزاد وزنها زيادة كبيرة، وصار من الصعب أن تلاحق رفيقها خطوة بخطوة. في تلك الأثناء، كانت بحاجة إلى مكان آمن وجاف لتستقر به وتضع جراءها. عثرت على كهف على بعد بضعة أميال تجاه منبع نهير صغير. كان الكهف مرتفعًا بعض الشيء فوق أحد التلال، وكان آمنًا

من خطر الحيوانات الأخرى. تحسست الكلبة طريقها إلى داخل الكهف تبحث عن أي علامات للحياة فلم تجد أيًّا منها.

قصد الأعور إلى الاهتمام بها، فما إن استقرت في بيتها الجديد حتى جلب لها الطعام، وقام على حراسة المدخل وقت انتظارهما للولادة.

وضعت الكلبة خمسة جراء، أربعة منها إناث وذكر واحد، ثم أخذت تلعق هذه الجراء كي تنظف أجسامها في الوقت الذي كان فيه الأعور يراقب ذلك كله. أطلقت الجراء صرخات ضعيفة وقت التقاط أنفاسها الأولى.

كان الذكر مختلفًا عن أخواته؛ فقد احتفظت جميعًا بفرو أمها الأحمر، أما هو فكان رماديًّا من الرأس إلى القدم، وبدا شبيهًا بوالده تمامًا.

عاشت الجراء في الفترة الأولى من حياتها في عالم من الظلمة؛ إذ ظلت أعينها مغلقةً. كان كل ما تعرفه هذه الجراء هو الروائح والأصوات الموجودة داخل الكهف ولمسة أمها الحانية. أما الجرو الصغير فسرعان ما اعتاد على الأشياء المحيطة به ليجد الطريق المؤدي إلى أمه والآتي من عندها، وينصت إلى أبيه عندما يعود إلى الكهف، وقد كان هو وأخواته يتدحرجون ويلعب بعضهم مع بعض، منتظرين الطعام ومكتشفين أصواتًا جديدة في كل مكان من حولهم.

ورويدًا رويدًا، بدأت أعين الجراء الصغيرة تتفتح، وتمكنت بعد طول انتظار من رؤية أمها. بعد ذلك شرعت الجراء تستكشف الكهف، فكانت تشتم جميع الأركان وتتسلق كل الصخور. وعلى الرغم من ذلك، فإنها لم تقترب من المدخل، ومتى كانت تسير بعيدًا في ذلك الاتجاه، كانت أمها تردها إلى داخل الكهف. ولم يكن المدخل في أعينها الناشئة وعقولها الساذجة إلا حائطًا آخر، فلم تكن لديها أي فكرة عن وجود عالم آخر خلف حائط الضوء؛ إذ كان الكهف هو كل ما عرفته.

وبينما تتوالى فصول السنة، إذ ضربت الأرض مجاعة أخرى، فكان الأعور يبحث بحثًا طويلًا وصعبًا عن اللحم لكي يجلبه لأسرته، على الرغم من ندرته الشديدة وعدم كفايته لإطعام هذا العدد الكبير من الأفواه. نتيجة لذلك، صارت الجراء ضعيفة، ولم تعد قادرة على اللعب في جوانب الكهف أو التجول بداخله.

خرجت الذئبة الحمراء هي الأخرى للصيد، لكنها لم تعثر على شيء، وقد آلمها أن ترى جراءها يزداد ضعفها يومًا بعد الآخر، لكنها أدركت في أعماق قلبها أن البرية مكان موحش وأنها لا بد أن تتعلم تقبل هذه الحقيقة. تأوهت الكلبة حزنًا عندما عادت من

الصيد إلى الكهف لتجد أن الجرو الرمادي فقط هو من بقي على قيد الحياة بين جرائها. وعلى الفور، جذبته إلى حضنها لتبقيه دافئًا، باذلةً كل ما تستطيع لكي تحفظ حياة جروها الوحيد.

في النهاية، حالف النجاح الذئب الأعور، وقتل طائرًا، وأحضره إلى الكهف. وهكذا باتت الأمور أكثر سهولة مجددًا. فقد دأب الأبوان على الخروج لجلب الطعام والعودة بما يكفي منه لإطعام الجرو الرمادي الذي لم يلبث أن استعاد صحته ثانيةً وشرع يقفز داخل الكهف. وهكذا تمكن هذا الجرو الصغير من تجاوز المجاعة الأولى له، مع أنها لن تكون الأخيرة.

سار كل شيء على ما يرام إلى أن جاء يوم لم يعد فيه الذئب الأعور إلى المنزل، فأدركت الكلبة الحمراء أن مكروهًا قد وقع، لذا غادرت الكهف للبحث عنه لتجد جسد رفيقها على بعد بضعة أميال من الكهف وقد فارق الحياة بعد أن خسر قتالًا مع أحد السنانير.

قضت الكلبة الحمراء بضع دقائق تشتم الأعور وتودعه، وفجأة تذكرت أن جروها وحيد في البرية الموحشة، فتساءلت: ماذا قد يحدث إن شق السِنَّوْر طريقه إلى الكهف؟ حدثتها نفسها أنه قد يحدث أي شيء حال وجودها بعيدًا. لذلك عادت الكلبة الحمراء أدراجها إلى الكهف على جناح السرعة.

الفصل السادس

استكشاف

قضى الجرو الرمادي الكثير من الوقت وحده في الوقت الذي كانت فيه أمه تخرج للصيد، ولم يكن قد برح فم الكهف بعدُ، بل لم يكن قد أدرك أن هذا المدخل لم يكن سوى فجوة كبيرة. ففي نظره، لم يكن ذلك المدخل إلا جدارًا آخر من جدران الكهف، فيما عدا أن والدته تستطيع أن تنفذ من خلاله، وقد وقع في ظنه أن أمه تقدر على فعل أي شيء، فقد رحل والده بعيدًا ولم يرجع قط. وكان إن حدث وتجول الجرو على مقربة شديدة من مدخل الكهف؛ تكِزُه أمه إلى الخلف، وأحيانًا تطلق في وجهه هريرًا خفيفًا على سبيل التحذير. أما الجرو فكان دائمًا ينزل على رغبة أمه؛ إذ عرف أنها كانت قلقة من أن مكروهًا قد يصيبه إن اقترب من المدخل أكثر مما يلزم، فمع أنه لم يعرف معنى الخطر قط، فقد عرف معنى الخوف؛ ذلك أنه كان جزءًا من عاداته الموروثة، بل كان جزءًا من البرية، وكان الخوف يعلِّم جرو الذئب العديد من الدروس المفيدة.

لا شك أن الذئب لا يفكر مثل الإنسان، فلم ينظر الجرو إلى فتحة الكهف ويسأل نفسه ماذا يوجد بالخارج، بل لم يخطر ذلك بباله. عرف الجرو العالم المحيط به فقط، وكان كل يوم بعد رحيل أمه للبحث عن الطعام يقترب شيئًا فشيئًا من المدخل. ومع كل خطوة يخطوها تجاه المدخل، كان يشم روائح جديدة ويسمع أصواتًا جديدة. وتمامًا كما كان الخوف جزءًا من عاداته الموروثة، كانت الحاجة إلى التجول والصيد. لذلك عندما جاء أخيرًا اليوم الذي تحول فيه الحائط النورانيّ إلى ألوان — أشجار وسماء ونهير يشق الغابة — خطى في شجاعة إلى خارج الكهف، ثم نظر إلى ضوء الشمس الساطع بعينين نصف مغمضتين، وسأل نفسه: ما هذا المكان؟

فجأةً شعر بخوف عظيم جعله يربض على حافة الكهف ويدقق النظر في ذلك العالم المجهول الموحش من حوله. انتصب الشعر الذي يغطي ظهره، وانكمشت شفتاه محاولًا أن يطلق هريرًا قويًّا، لكن شيئًا لم يحدث.

أطال الجرو النظر إلى الأشجار الخضراء ومنها إلى السماء الزرقاء، وفي أثناء ذلك، شاهد طائرًا يحلق بجناحيه فوق الأشجار ليختفي بعد ذلك في الغابة. اختفى ذلك الطائر وقت مروره بين الأشجار، فتساءل الجرو ماذا حدث له. أخذ يشاهد الرياح وهي تتحرك حركة رقيقة في عرض السماء، وإذ بنسمة رقيقة تداعب وجهه. وبينما كان يكتشف هذا العالم الجديد، ويزداد فضولًا، نسي أن يكشر عن أنيابه، ونسي خوفه كذلك.

وهكذا تخطى باب الكهف في جرأة وشجاعة ليسقط على وجهه ويصطدم أنفه بالأرض في الوقت الذي تدحرج فيه إلى أسفل التل. لم يدرك معنى السقوط، تدحرج إلى أسفل المنحدر مرارًا وتكرارًا، وامتلأ قلبه هلعًا. كان ذلك العالم المجهول قد تمكن منه أخيرًا.

توقف عن التدحرج عندما وصل إلى قاع المنحدر، وفي خوف وارتباك وقف على أرجله الأربع. أخذ يلعق فروه لينظفه من الطين والأوساخ، ولم يصبه أذى سوى بعض الندوب الصغيرة. وهكذا تمكن من اختراق الحائط الذي يفصله عن العالم الخارجي، وكُتبت له الحياة.

نظر إلى الحشائش من أسفله، وحك أنفه في الشجيرات، ورفع رأسه عاليًا ليستنشق النسيم. كاد سنجاب يجري حول شجرة أن يصطدم به، وملأ ذلك قلبه هلعًا. كان هذا هو أول حيوان يراه في حياته بعد أفراد أسرته. انكمش الجرو مرتعدًا من الخوف، وكشر عن أنيابه، لكن السنجاب كان على الدرجة نفسها من الخوف. دفع الخوف السنجاب إلى أن يتسلق إحدى الأشجار، ومن مكانه الآمن فوق الشجرة أخذ يرسل صرخات حادة.

زاد ذلك من ثقة الجرو في نفسه. وعلى الرغم من أن أشياء أخرى روعته أثناء مواصلته السير — نقار الخشب، وفرع شجرة صدمه في وجهه، وصوت حيوان غريب جاء إليه من بعيد — لم يثنه ذلك كله عن المواصلة. خالطه في حقيقة الأمر شعور غامر بالجرأة والتحدي حتى إنه عندما وثب طائر الفأر عاليًا تجاهه، حرك هو الآخر كفه تجاهه مداعبًا إياه. في المقابل، استجاب له الطائر بنقرة حادة في طرف أنفه جعلته يعوى في ألم، ودفعت الطائر إلى أن يسرع بالتحليق بعيدًا.

كان الجرو في مرحلة التعلم، وكان عقله شارعًا في تصنيف هذا العالم الجديد إلى مجموعات مختلفة ومفيدة. فقد كانت هناك كائنات تنبض بالحياة مثل الطائر

والسنجاب، وكان عليه الاحتراس منها. وكانت هناك أشياء غير حية مثل الكهف والصخور التي لا تفارق مكانها. أما الأشياء التي تنبض بالحياة فكانت تجوب الأرض ولا يمكن التنبؤ بما قد تفعله، لذلك عليه دائمًا أن يكون مستعدًا لمجابهتها.

كانت مشيته في ذلك الوقت خرقاء غير مصقولة. فقد كان يصطدم بالشجيرات وتزلُّ أقدامه فوق الصخور، ويتعثر في الأشجار، غير أنه مع كل خطوة جديدة، كان يتعلم شيئًا جديدًا، ومع كل خطوة جديدة، كان يزداد فضولًا، وقد أدى ذلك كله إلى مزيد من المفاجآت.

تتبع صوتًا غريبًا بين الأوراق، وصادف نهيرًا صغيرًا. هنا غمر كفه في الماء، وكان رطبًا باردًا وجديدًا عليه تمامًا، ثم أتبعه بكف آخر حتى وقف في الماء بأقدامه الأربع. في تلك الأثناء، شعر الجرو بتحرك التيار من حوله، وتشابه ذلك مع أولى الخطوات التي خطاها خارج الكهف. فجأة اختفت الأرض أسفله، وذهب ثانيةً، بعد أن امتلأ هلعًا وذعرًا، إلى عالم المجهول.

رفع رأسه فوق سطح الماء، وكأنه كان يفعل ذلك طيلة حياته وبدأ يسبح. حاول أن ينظر حوله وأن يعود أدراجه إلى الشاطئ، لكن التيار تحكم فيه، وجرفه بعيدًا في اتجاهه. خالطه شعوران تجاه هذه المغامرة الجديدة هما الخوف والإثارة. كان كل شيء جديدًا وكل شيء يبعث على الخوف في الوقت نفسه.

عندما دفعه التيار بالقرب من بعض الصخور، اقتلع نفسه من الماء. زحف الجرو إلى الشاطئ، وهز نفسه هزة عنيفة لكي يتخلص مما غمره من ماء. لم تكن لديه أي فكرة عن المكان الذي يوجد به في ذلك الوقت أو عن طريق العودة إلى المنزل. فكر في أمه، وكانت حاجته إليها في ذلك الوقت أكثر من أي شيء آخر في هذه الدنيا. تساءل كيف سيعثر عليها مرة أخرى، وفي النهاية، شرع في السير وكله أمل أن يكون على الطريق الصحيح.

حينئذ مر بجواره وميض أصفر، وكان ذلك ابن عِرس يقفز في خفة مبتعدًا عن طريقه. لم يكن الجرو خائفًا، لكنه كان مصدومًا يعتريه الفضول. لاحظ الجرو كائنًا حيًّا آخر أقل حجمًا بكثير من الكائنات السابقة — ابن عِرس رضيع — على مقربة شديدة منه. مال نحو ذلك المخلوق يتشممه ووكزه وكزة رقيقة بكفه، فربما يلعب معه. فجأةً عادت ابن عِرس الأم، كانت تقف إلى جانب الجرو، وعلى الفور أسقطته أرضًا.

عوى الجرو الرمادي، وأحدثت ابن عِرس الأم جلبة مفزعة ومخيفة أثناء انقضاضها عليه. ضربته ضربًا عنيفًا، وحاولت أن تعضه في رقبته. لم تدرك أن الجرو لم يكن يقصد الإيذاء، بل كل ما كان يجول بخاطرها هو أن تحمي صغيرها.

كان الجرو الرمادي سيموت في تلك الأثناء، ولم يكن سيُقدَّر لقصته أن تُكتب، لولا مجيء الكلبة الحمراء تشق طريقها بين الشجيرات. حولت ابن عرس الأم وجهها إلى ذلك الخطر الجديد، لكن الكلبة الحمراء كانت شديدة السرعة. وعلى الفور أمسكت ابن عِرس الأم بأسنانها، وهزتها بقوة، ثم ألقت بها من فمها إلى الأشجار بعيدًا للغاية عن جروها.

بدت فرحتها بالعثور على الجرو الرمادي أكبر من فرحته هو بعثوره عليها. وعلى الفور أخذت تمسه بأنفها وتعانقه وتلعق الجروح التي أصابته إثر هجوم ابن عِرس الأم عليه. وبينما يلتمس الجرو الصغير الدفء في صدر أمه، شرع يئن ويتنهد بصوت خفيض؛ إذ شعر بالأمان والسعادة أخيرًا وبعد عناء.

الفصل السابع

قانون البرية

كبر الجرو في الحجم، وتعلم كل شيء سريعًا؛ تعلم متى يجب أن يكون شجاعًا ومتى يتراجع. اصطحبته أمه في رحلات الصيد وكان يحذو حذوها، فعلمته أن قانون البرية أعظم بكثير من الكلمات المجردة: «كل أو تؤكل.» فالذئب لا يقتل إلا عندما يشعر بالجوع أو الخطر؛ ذلك أنه حتى الأعداء يجب أن يحترم بعضهم بعضًا.

تركته أمه يتجول ويمارس الصيد بمفرده، فقد كانت تدرك أن عليه أن يكتشف بعض الأشياء بنفسه، على الرغم من أنه لم يذهب بعيدًا عن الكهف قط. بعد مغامرته الأولى، كان الجرو شديد الحرص على ألا يضل طريقه ثانية. وفي واحدة من رحلاته الفردية، قابل جرو الذئب البشر للمرة الأولى في حياته.

ذات يوم كان يجري صوب النهير ليحظى بشربة ماء. ولأنه كان لا يزال جروًا صغيرًا متحمسًا، فقد شق طريقه مندفعًا بين الشجيرات حيث وجد خمسة مخلوقات غريبة يجلسون في صمت بجوار الماء. وأثناء محاولته التوقف تدحرج على الصخور الموجودة على ضفة النهر. أدهشه أن أحدًا من الخمسة الرجال لم يثر لرؤيته وأن أحدًا منهم لم يكشر عن أنيابه أو يزمجر في وجهه. لكنهم جلسوا جميعًا في ذلك المكان صامتين، ولم يكن بين تلك المخلوقات والحيوانات الأخرى الموجودة في البرية أي تشابه. ولم يكونوا يتبعون أيًّا من القوانين التي عرفها جرو الذئب.

لم يتحرك الجرو قيد أنملة، ودفعته غرائزه إلى الجري، لكن شيئًا ما كان قد سلب فكره. داخَله إحساس بالهيبة. شيء ما بداخله أخبره بضرورة احترام هؤلاء الرجال. عندما اقترب منه أحدهم، انزوى في جلده وانكمش، وعندما مال عليه ذلك الرجل، هَرَّ وكشر عن أنيابه.

ضحك الرجل وقال: «انظروا! الأنياب البيضاء!»

مد الرجل يده ليمس رأس الجرو، لكن الذئب الصغير تحرك سريعًا وعض يد الرجل ما جعلها تنزف.

توجع الرجل، وتراجع للخلف قائلًا: «قد عضني.»

ضحك منه أصدقاؤه، وسأله أحدهم: «وماذا كنت تتوقع؟»

شعر الرجل بالحرج والضيق، فضرب الجرو بعصا. صرخ الذئب من الألم. ولأنه لم يكن قد تعرض للضرب في حياته قط، أصابته دهشة كبيرة مما كان يحدث له. كان الرجل سيستمر في ضرب الجرو الصغير لولا قدوم الكلبة الحمراء. ففي تلك اللحظة، قفزت من بين الشجيرات مكشرةً عن أنيابها ومستعدةً تمام الاستعداد للدفاع عن ولدها.

علا صوت أحد الرجال الآخرين عند رؤية الكلبة الحمراء. نظر إليها، وقال: «كيتش!». توقفت الكلبة في مكانها، والتفتت إلى الرجل المتكلم، وطربت آذانها لسماع صوته. قال الرجل مرة أخرى: «كيتش، تعالِ هنا!»

بعد ذلك رأى الجرو أمه، التي لا تخشى أي شيء، تربض حتى لامست بطنها الأرض. بدأت الكلبة تنتحب في صوت رقيق وتهز ذيلها، واقترب الرجل الذي كان قد تكلم إليها. وضع يده على رأسها، فربضت على الأرض أكثر. أثناء ذلك كله، لم تهِرّ الكلبة أو تكشر عن أنيابها. تبع بقية الرجال ذلك الرجل وجاءوا جميعًا وتحسسوا الكلبة، لكنها لم تمنع أيًّا منهم من فعل ذلك.

قال الرجل واسمه جراي بيفر: «لقد هربت منذ عام مضى.» كانت الكلبة الحمراء، واسمها كيتش، ملكًا لأخيه قبل أن ترحل إلى البرية. «هربت أثناء إحدى المجاعات عندما كان الطعام نادرًا للإنسان والحيوان على السواء. ولمّا كان أبوها ذئبًا، لم يكن عجيبًا أن ترحل إلى البرية.»

ربط جراي بيفر حبلًا حول رقبة كيتش، ولم تبد هي أي مقاومة، أو تنبح في وجهه، بل تأوهت في فرح وهزت ذيلها. نظر جراي بيفر إلى جرو الذئب الذي كان لا يزال منبطحًا على الأرض وقال: «نظرًا لأن أخي توفي الشتاء الماضي، فالكلبة وجروها صارا ملكًا لي الآن.» ولم يبد أي من الرجال اعتراضًا على ما قال.

انحنى جراي ليمسك بالجرو من جلد رأسه، لكنه قابله بالهرير وكشر له عن أنيابه. ضحك جراي من ذلك وقال: «يا لك من شجاع، إذن فأنت تحب أن تُظهر أسنانك البيضاء؛ حسنًا؛ سيكون اسمك من اليوم أبيض الناب.» وهكذا اقتاد جراي كيتش بعيدًا عن النهير وقيدها إلى شجرة من الأشجار، وتبعها أبيض الناب، كما كانوا يدعونه منذ

وقت قليل، وجلس إلى جوارها. إذا كانت هي قد استسلمت لهؤلاء الرجال، فلا بد أن يفعل ذلك هو أيضًا.

وضع جراي بيفر إحدى يديه على ظهر أبيض الناب وقلبه على ظهره. شاهدت كيتش الرجل يمسح على بطن جروها، وشعر الجرو في ذلك الوقت بالعجب والسخف؛ فها هو ذا يضطجع على ظهره وأرجله سابحة في الهواء. وفي حقيقة الأمر، كان في هذه الجلسة عجز تام قاومته طبيعة أبيض الناب مقاومة شديدة. لم يستطع أن يفعل شيئًا ليدافع عن نفسه، ولم يستطع الهرب، غير أنه سرعان ما تخلص من خوفه، وبدأ يلاحظ شيئًا جديدًا، بل لعله وجد متعة في مسح الرجل على بطنه. كانت هذه التجربة جديدة عليه تمامًا، لكنه أحبَّها.

قطع بهجة هذه اللحظة صوت ضوضاء غريبة يصل من بعيد، فقد كانت بقية قبيلة الهنود الحمر قد بدءوا يتوافدون على المكان لنصب مخيم. ظهر العديد من الأفراد من بين الأشجار يحملون المؤن والطعام، وأخذت الكلاب والأطفال يقطعون أرض المعسكر جيئة وذهابًا إذ كانت الخيام قد نصبت وحفرت حفر النيران. فجأة، أحاط الصخب والضوضاء أبيض الناب، وكانت أشياء عديدة تحدث من حوله في وقت واحد. حاول جرو الذئب أن يفهم ما يجري حوله كله، لكنّ ذلك كان مستحيلًا. في هذا الوقت كان الجرو على وشك البدء في المرحلة التالية من حياته؛ وهي مرحلة تحكمها قوانين الإنسان أكثر مما تفعل قوانين البرية.

الفصل الثامن

نمط حياة جديد

واجه أبيض الناب تحديًا جديدًا أمامه تمثل في الكلاب الأخرى، فمع أن الذئاب والكلاب أبناء عمومة، كان هناك اختلاف كبير بينها. فقد عاشت الكلاب مع الإنسان أعوامًا طويلة حتى إنها فقدت الجزء الأكبر من طباع البرية، أما الذئاب على الجانب الآخر فلم تدرك قط شعور الانتماء لأي فرد. فقد جرت عادتها أن تتحرك كيفما أرادت، وأن تذهب إلى أي مكان شاءت، لذلك كان أمام أبيض الناب الكثير ليتعلمه عن قوانين الكلاب.

ما إن رأت الكلاب أبيض الناب وأمه كيتش في المخيم حتى بادرتهما بالهجوم، فلاقاها الجرو مكشرًا عن أنيابه ومزمجرًا، لكنه لم يكن ندًّا لأي منها. اجتمعت الكلاب عليه، وسرعان ما سرت في المكان موجة من هرير الكلاب الغاضبة التي كشرت عن أنيابها في وجه أبيض الناب. جذبت كيتش زمامها في محاولة للوصول إلى مكان المعركة، وأخذ أبيض الناب يعض الأرجل والبطون التي تقترب منه. أدركت الكلاب أن جرو الذئب كان مختلفًا عنها؛ فلم يكن يشبه الكلاب في أي شيء، وأدركت أيضًا أنه جاء من البرية وأنه دخيل، وقد أرادت له أن يعرف من هو صاحب الكلمة العليا في المخيم من الحيوانات. في تلك الأثناء جاء الرجال إلى المكان يصيحون في الكلاب ويبعدونها.

في غضون بضع دقائق كان أبيض الناب واقفًا على أقدامه مرة أخرى. خلَّص الجرو نفسه، وذهب إلى أمه لكي يقف بجوارها. لم يُصبْ بجروح خطيرة، باستثناء بعض الخدوش، غير أنه أصيب بالفزع. لماذا حاولت هذه الكلاب إلحاق الأذى به؟ ولماذا لم تحاول أمه مساعدته؟ كان يراقب الموقف عندما دفع الرجال الكلاب بعيدًا عنه بعصيهم. ومع أنه لم يكن يعي معنى كلمة «عدل»، فقد بدأ يفهم معناها، وهنا أخذ احترامه للإنسان — وانعدام ثقته في الكلاب في المقابل — في التزايد.

اصطحب جراي بيفر الكلبة كيتش وأبيض الناب إلى خيمته حيث أخذ أبيض الناب يجول بنظره داخل منزل سيده الجديد. بدت الخيمة مشابهة للكهف غاية التشابه؛ فقد كانت مظلمة وجافة ودافئة إلى حد ما، لكن الرائحة التي انتشرت بداخلها كانت مختلفة تمامًا عن رائحة الكهف. لم يكن أبيض الناب معتادًا على رائحة اللحم الناضج وجلود الحيوانات المجففة أو رائحة بني الإنسان. كانت هذه الحيوانات العجيبة الجديدة لا تشبه رائحتها أي رائحة في البرية. لذلك تراجع الجرو إلى الوراء خوفًا واضطرابًا، فقد كان منتميًا إلى خارج هذا المكان وفضل لو ظل حيث ينتمي.

سرعان ما اعتادت زوجة جراي بيفر، كلو-كوتش، وابنه، متساه، على الحياة في المكان الجديد. فقد أمَّنا الخيمة، ونصبا أسرَّتهما، ووضعا أمتعة الأسرة بالداخل، وكان هذان الشخصان يعملان دون أن ينطقا ببنت شفة. كانا قد نصبا الخيمة وفكَّاها مرات عديدة حتى بدا الأمر مألوفًا لهما للغاية. وكانت الأسرة تتنقل مع تتابع فصول السنة، تصطاد من الحيوانات ما يصلح للأكل، وتلتمس الحماية من الطقس القارس. وبينما كان جراي بيفر يوقد النار في إحدى الحفر، ناولت كلو-كوتش سمكة لكل كلب من الكلاب.

راقب أبيض الناب سيده الجديد في اهتمام بالغ وأخذ يسأل نفسه عما يفعله. كان ضوءًا عجيبًا يخرج من بين يديه، فاقترب منه أبيض الناب، ووجد الضوء دافئًا أيضًا. تمايل ذلك الضوء واضطرب حول العصي والنباتات الصخرية. لم يكن أبيض الناب يعرف شيئًا عن النار، لكنها جذبت انتباهه مثلها في ذلك مثل الضوء الذي كان قد جذب انتباهه عند فم الكهف عندما كان جروًا رضيعًا. قطع الخطوات القليلة التي فصلته عن النار زحفًا، وسمع جراي بيفر يضحك ضحكًا رقيقًا من فوقه. أخرج الجرو الصغير لسانه ليتذوق هذا الضوء العجيب، وكان اللهب يتراقص أمام أنفه ولسانه.

تراجع الجرو إلى الوراء، ثم انخرط في موجة من العواء والصراخ بعد أن تدحرج على الأرض. وهنا نبحت كيتش وأخذت تجذب الحبل التي ربُطت به وهي غاضبة لأنها لم تستطع أن تذهب لمساعدته. في الوقت نفسه علا صوت ضحك جراي بيفر وأخذ يضرب على فخذيه من شدة الفرح. بعد ذلك أخبر جميع من كانوا في المخيم بحكاية الجرو الصغير الذي حاول أن يتذوق اللهب، وسرعان ما انخرط الجميع في الضحك من الجرو الرمادي. وكلما زاد نحيبه وبكاؤه، زاد في المقابل ضحكهم وسخريتهم.

أصاب أبيضَ الناب حرجٌ كبير، فلم يكن يحب أن يضحك منه الناس. فكيف يثير نحيبه كل هذا الضحك؟! ومن هذه الحادثة، تعلم أبيض الناب أن يبغض الضحك، بل كان الضحك سببًا آخر جعله لا يثق بالآخرين.

كانت كيتش قد عاشت من قبل مع البشر، لذلك حاولت أن تعلم جروها بعض الأشياء عن هذه المخلوقات. فمثلما قادته داخل البرية، ستقوده الآن في حياته مع الإنسان. وهكذا تعلم الجرو أن يقرأ لغة الأجسام وأن يستمع إلى نبرة الصوت، وتمكن كذلك من أن يعي كثيرًا من الأشياء عبر حاسة الشم. والكلاب في العادة تستطيع أن تستشعر خوف شخص ما أو فزعه منها أو تهديده لها، وكانت هذه موهبة خاصة اشتركت فيها الكلاب فقط وبعض الذئاب.

علاوةً على ذلك، تعلم الجرو الصغير من مراقبته لأمه أن يطيع أوامر سيده. فقد أصبحت الكلبة الحمراء، التي كانت فيما مضى عظيمة الشجاعة والقوة داخل البرية، شديدة الاستكانة الآن داخل معسكر الهنود الحمر، بل وكانت تهز ذيلها كلما اقترب منها جراي بيفر. وكانت تنبح في سعادة عندما كانت كلو-كوتش تحضر لها العشاء، وقد أصابت أبيض الناب دهشة عظيمة من التحول الذي طرأ على أحوال أمه، لكنه لم يشغل باله.

في تلك الليلة، ذهب إلى النوم تحت شجرة من الأشجار حيث تكوَّم إلى جانب كيتش التي كانت لا تزال مربوطة في حبلها. رويدًا رويدًا، تلاشت الأصوات التي كانت تملأ المخيم. كان أبيض الناب ممتلئ المعدة ويشعر بالدفء من النار بعد أن قضى يومًا شاقًّا. فقد التقى الرجال في بداية اليوم، وبعد ذلك اشتبك في عراك مع مجموعة من الكلاب، ثم حرق لسانه بالنار. لذلك كله، كان في غاية الإرهاق.

راح في النوم على صوت أنفاس أمه وطقطقة النار المجاورة. ولم يعلم أبيض الناب أن حياته قد تغيرت تغيرًا أبديًّا، فلم يعد مقدرًا له أن يحيا داخل الكهف وأن يخرج للصيد مع أمه ثانيةً. وهكذا ذهب للنوم في هذا اليوم متسائلًا: «ما الذي سيأتي به اليوم الجديد؟»

الفصل التاسع

الكلب ليب-ليب

نظرًا لذكاء أبيض الناب الشديد، لم يستغرق وقتًا طويلًا للتعود على حياة المخيم، والتعرف على من ينبغي اجتنابهم. فقد تعلم أن النساء قد يعطينه مزيدًا من الطعام في غياب الآخرين؛ لذلك جرت عادته أن يتسكع بجوار الخيام التي كان الطعام يعد بداخلها، منتظرًا المزيد من الأسماك أو بعض قطع اللحم التي قد يقذف بها في طريقه. على الجانب الآخر، غالبًا ما كان الأطفال يعاملونه معاملة سيئة، ويقذفونه بالأشياء. وعلى نحو ما كان دائمًا يقع في مشكلات عندما يقترب منهم أكثر من اللازم، فقد كانت معظم نوادرهم تتمركز حوله، وقد تعلم أن يبقى بعيدًا عن الكلاب الأخرى، لا سيما الكلب ليب-ليب.

كان ليب-ليب يكبر أبيض الناب في العمر، ولم يكن سعيدًا لقدومه. وكان متنمرًا يفرض زعامته على صغار الجراء، ولم يكن يفوت فرصة دون أن يهجم على أبيض الناب أو يضايقه، من هنا كان جرو الذئب يتعرض للهجوم على نحو مستمر. فإذا تجول حول المخيم يتشمم الأركان وأسفل جوانب الخيام، وجد ليب-ليب في انتظاره ليبدأ في عضه والانقضاض عليه. لذلك نادرًا ما كان أبيض الناب يحظى بلحظة من الأمان. فلم يكن هناك وقت لممارسة ألعاب الجراء في ظل تكرار مواجهته لليب-ليب وهجماته، وهكذا دُفع أبيض الناب دفعًا إلى أن يكبر سريعًا.

نظرًا لأن أم أبيض الناب كانت لا تزال مقيدة في حبلها، كان جراي بيفر هو حاميه الوحيد. فقد كان بقية الرجال في المخيم يشيرون بأصابع الاتهام نحوه عند حدوث أي شجار أو سرقة قطعة من السمك أو قلب طبق من أطباق الطعام. وكان هو في المقابل يختبئ خلف أرجل جراي بيفر في الوقت الذي كان يشير فيه هؤلاء الرجال إليه بأصابعهم أو يلوحون له بعصيهم. لكن سيده لم يدع أي شخص يقترب منه قط، حتى

عندما يكون مخطئًا، إذ أحيانًا ما كان يخطئ. فمن الصعب أن يلزم المرء حدود العدل والأمانة عندما لا يعامله أي شخص على هذا النحو مطلقًا.

افتقد أبيض الناب البرية، فثمة أيام مرت عليه كان فيها يجلس على حافة المخيم ويجول بنظره في الأشجار، لكنه سرعان ما كان يعود إلى أمه بعد أن ينهكه الألم وفقدان الشعور بالارتياح، فيئن إلى جوارها بصوت خفيض.

وأخيرًا جاء اليوم الذي حل فيه جراي بيفر وثاق كيتش، وكان أبيض الناب شديد الاغتباط باسترداد أمه حريتها، فقد لازمها في سعادة تامة داخل جميع أرجاء المخيم. وما دام قريبًا من أمه، فإن ليب-ليب لا يجرؤ على الاقتراب منه. كانت تلك هي المرة الأولى التي يشعر فيها أبيض الناب بالسعادة والأمان منذ وصوله إلى المخيم. أخيرًا قد تتغير الأوضاع، فأمه الآن تنعم بحريتها وبإمكانها العودة إلى حياتها في البرية.

قاد أبيض الناب أمه إلى طرف الغابة، كان النهير والكهف والأشجار الهادئة ينادونه. هنا تقدم بضع خطوات إلى الأمام، ثم توقف ونظر إلى الوراء ليجد أن أمه لم تبرح مكانها. جرى أسفل بعض الشجيرات لاهيًا ومحاولًا أن يزحزحها من مكانها. كان ثمة شيء ما هناك في ذلك الفضاء يناديه، وقد سمعت أمه هي الأخرى ذلك النداء. لكنها سمعت أيضًا نداء النار والإنسان، فأدارت ظهرها وعادت تمشي الهوينى نحو المعسكر.

ماذا عساه أن يفعل حينئذ؟ فلم يكن في النهاية إلا جروًا صغيرًا. وإن كان نداء البرية قويًّا، فإن حاجته إلى البقاء بجوار أمه كانت أقوى. لذلك تبعها عائدًا إلى خيمة جراي بيفر وحياة المخيم؛ بحلوها ومرها.

ولسوء الحظ، كانت حياة أبيض الناب على وشك التغير مرة ثانية. فأثناء مجاعة الشتاء، اشترى جراي بيفر بعض اللحم من رجل آخر في القبيلة يُدعى ثري إيجلز. ولكي يدفع جراي ثمن اللحم، أعطى البائع بعض القماش وفرو دب بالإضافة إلى كيتش. كان ثري إيجلز وأسرته يستعدون لترك المخيم والذهاب للتجارة في الجنوب، لذلك حزم ما معه من قماش وفرو واصطحب كيتش خلفه بعد أن ربطها بحبل.

شاهد أبيض الناب هذا الرجل الغريب يحمل أمه على متن قارب صغير، فأصابه الهلع لذلك، وأخذ ينبح ويعوي ويقفز على الشاطئ وحاول اللحاق بأمه، لكن ثري إيجلز ركله إلى الخلف، ثم دفع القارب إلى الماء وبدأ رحلته.

حاول جراي بيفر الإمساك بالجرو الصغير، لكن أبيض الناب تمكن من أن يحرر نفسه وقفز في النهر وبدأ يسبح خلف القارب الذي يحمل أمه.

على الفور، سحب جراي بيفر قاربًا آخر، ولاحق أبيض الناب، وسرعان ما اقترب من الجرو الغاضب إلى أن وصل إليه فجذبه من جلد رقبته، ووضعه في قاربه. نتيجةً لذلك، بدأ أبيض الناب في العواء والنحيب محاولًا أن ينادي أمه، وحاول أن يقفز ثانيةً إلى الماء لكن جراي بيفر منعه. وعندها مر أبيض الناب بتجربة جديدة تمامًا؛ حيث ضربه جراي بيفر. ناوله صفعة بعد أخرى حتى توقف عن الصراخ.

حاول أبيض الناب أن يهرَّ ويكشر عن أنيابه، لكن جراي بيفر لم يكن خائفًا، فلم يكن هناك ما يستطيع الجرو أن يفعله. لهذا توقف الجرو عن الهرير، وجلس عند قدم جراي بيفر أثناء عودتهما إلى الشاطئ.

ذهب أبيض الناب إلى المنزل مع سيده بعد أن وقع في إدراكه أن جراي بيفر رجل قوي ويجب أن يطاع، لكن جرو الذئب كان قد فقد الشعور بالسعادة. بات الآن أكثر ارتيابًا في الناس والكلاب الآخرين من ذي قبل؛ فآثر الوحدة. وقد غيَّره الضرب وفقدان أمه، بل علَّماه ضرورة أن يكون وضيعًا.

الفصل العاشر

كلب للعمل

حان الوقت ليشارك أبيض الناب في العمل. فقد كانت الحياة في الشمال قاسية، وعلى الجميع — بمن فيهم الكلاب — أن يمدوا يد المساعدة. لهذا بدأ جراي بيفر ومتساه في تدريب الجراء الجديدة — بمن فيها أبيض الناب — لجر المزلجة.

كان هناك سبعة جراء في الفريق، وكانت جميعًا تسبقه في المولد، فكانت أعمارها جميعًا بين التسعة والعشرة أشهر، بينما بلغ هو من العمر ثمانية شهور فقط، وقد كان فردًا في فريق متساه الذي يقوده ليب-ليب.

بدأت هذه الجراء في العمل في رحلات قصيرة، واستغرق الأمر بعض الوقت لكي تعتاد على جر المزلجة. في البداية كانت الكلاب تتعثر وينقلب بعضها فوق بعض؛ إذ كانت الأزمَّة تلتف حول أرجلها، والأطواق تنزلق من فوق صدورها. اضطر متساه إلى أن يوقف الفريق مرات عدة لكي يخلص أحد الكلاب من عقدة انعقدت حوله، فقد كان الصبي يخشى أن تختنق الكلاب. وفي بعض الأحيان، كان ليب-ليب يرجع إلى الوراء نحو الصبي، بدلًا من التقدم إلى الأمام، فيكاد يمر فوق الكلاب الأخرى.

في النهاية تعلمت الكلاب أن يجري بعضها بجوار بعض دون أن تتخطى الألجمة. ولم يحاول أي منها أن يتخطى الكلب الموجود أمامه. وهكذا ظلت هذه الكلاب مرتبة في خطين مستقيمين تجر المزلجة كأنها كلب واحد.

كان هذا الأمر أقرب إلى الصداقة كما عرفها أبيض الناب مع الكلاب الأخرى، فعندما ربط متساه الكلاب إلى المزلجة، اضطرت إلى العمل كفريق، ومع ذلك ظلت بينها مشاحنات. لكن في الجزء الأكبر من الوقت لم يقترب أبيض الناب والكلاب الأخرى أحدها من الآخر، وكان الأمر أشبه بهدنة من نوع ما.

استمتع أبيض الناب بعمله، فقد أحب العدو فوق الجليد وشد الأحزمة الجلدية حول صدره. ولا شك أن العمل كان شاقًّا وصعبًا للغاية، لكنه كان أهلًا له، هذا بالإضافة إلى أنه أدرك أن الأداء الجيد يسعد سيده. فكان يشعر بالفخر عندما يعرف أن جراي بيفر سعيد به.

أخذ أبيض الناب المهام جميعًا مأخذ الجد، وكان شديد التفاني عندما يتعلق الأمر بحراسة ممتلكات سيده. فلم يكن أحد ليخاطر بنفسه ويقترب من خيمة جراي بيفر أو يمس أي شيء يملكه، إذ بدا أن أبيض الناب كان موجودًا دائمًا لحماية هذه الأشياء فكان يلقى أي شخص يتجول بالقرب من خيمة سيده بهرير خفيض.

في إحدى الأمسيات عاد أبيض الناب إلى الخيمة ليجد رجلًا غريبًا بالقرب من مدخل الخيمة، فأسرع السير إلى الجانب الآخر منها، وفاجأ الرجل من الخلف. سار أبيض الناب نحو الرجل الغريب مكشرًا عن أنيابه، وقد انتصب فرو ظهره وارتفعت مؤخرة عنقه.

قال الرجل: «أنا ... أنا.» تراجع الرجل ملوحًا بيديه للذئب، وقال: «قد أرسلني السيد جراي بيفر.»

لم يفهم أبيض الناب الكلمات التي نطق بها ذلك الرجل، لكنه شعر بما يعتريه من خوف، بل أدرك أن ذلك الرجل كان مذعورًا، وواصل الذئب التقدم نحو الرجل.

قال الرجل في صوت متلعثم: «انتظ ... انتظر يا أبيض الناب، فقد أتيت لآخذ بعض الأدوات.» وكانت هناك صخرة خلف هذا الرجل لم يرها، فانزلق وسقط على ظهره. على الفور قفز أبيض الناب تجاهه، وأمسك بإحدى رجلي بنطاله، فبدأ الرجل في الصراخ.

جاء جراي بيفر في هذه اللحظة، وقال: «أبيض الناب! توقف!» كان قد عاد إلى خيمته في الوقت المناسب تمامًا، وعلى الفور اقترب جراي من الرجل، وساعده على القيام.

عاد الذئب للوقوف بجوار الخيمة. لا شك أن سيده غضب منه لأنه هجم على أحد أصدقائه. لكن جراي بيفر شرع في الضحك.

بعد دقيقة قال جراي مخاطبًا صديقه: «إذن لم تستطع التغلب على ذئبي يا سالمون تونج.»

نفض الرجل التراب عن ملابسه، وبدا عليه الحرج والانزعاج، ثم قال: «أرسلتني إلى هنا وأنت تعرف أن أبيض الناب قد يعضني، أليس كذلك؟»

هز جراي بيفر كتفيه، وقال: «من قال ذلك؟ أبيض الناب كلب حراسة جيد، ويصعب على المرء أن يعرف ما سيفعله.»

كان رجال آخرون قد انضموا إليهما، وأنصتوا في اهتمام إلى النقاش المحتدم بين جراي بيفر وسالمون تونج.

– «بل كنت تعرف ما سيفعله.»

قال جراي بيفر: «ربما في المرة القادمة ينبغي لك أن تعيد التفكير قبل أن تنخرط في التفاخر والتعالي؛ فقد تكون مزلجتك أكبر، وربما تمتلك كلابًا أكثر مني، لكنك لا تملك أبيض الناب.» ابتسم جراي، وعقد ساعديه أمام صدره.

غضب سالمون تونج من ذلك غضبًا شديدًا، وأدرك أن صديقه كان حاقدًا عليه. فقد تركه جراي بيفر يخطو نحو الخطر، لأنه أراد أن يبدو أكثر قوة منه. لكن ماذا لو كان أبيض الناب قد عضه في قدمه أو ذراعه أو عنقه؟ لقد كان سالمون تونج سعيد الحظ لأن الذئب أراده أن يشعره بالخوف فقط.

قال سالمون لصديقه: «إنك رجل شرير.» ثم دفعه خطوة إلى الوراء، وقال: «كيف تجرؤ على أن تعاملني — أو تعامل أي شخص آخر — على هذا النحو!»

كان سالمون تونج على وشك أن يدفع جراي بيفر ثانيةً عندما طرحه أبيض الناب على الأرض، لكنه في هذه المرة قصد أن يلحق به أذى، واخترقت أسنانه الحادة جسد الرجل، بينما كان جراي بيفر يبعده عن سالمون.

دفع جراي بيفر الذئب إلى مكان آمن، وراقب أبيض الناب بقية الحوار وهو ينظر من بين أقدام جراي بيفر. لم يبد على سيده الغضب، بل بدا سعيدًا في حقيقة الأمر.

قال جراي بيفر مخاطبًا جميع الرجال من حوله: «إن هذا لشيء يجب أن يفكر فيه الجميع؛ لا يقدر أحد على أن يتعدى عليَّ أنا أو ذئبي.»

بدأ بقية الرجال في الرحيل عن المكان، وساعد أحدهم سالمون تونج على أن يلف عصابة حوله ذراعه المصاب، وبعد أن هم بالرحيل التفت وراءه ونظر إلى جراي بيفر والذئب وهو يهز رأسه مستنكرًا ما حدث ليترك ذلك ابتسامة على وجه جراي بيفر.

غير أن أبيض الناب لم يكن سعيدًا، فقد كان العالم كما رآه متوحشًا ضاريًا؛ بل عالمًا خاليًا من الدفء والحب والمودة. أحب جراي بيفر ابتعاد الذئب عن الآخرين، وأحب أيضًا وضاعته وتوحشه. ولا معنى لذلك إلا أن جراي بيفر كان أكثر قوة من الباقين، وأنهم كانوا خائفين منه.

لم يكن أبيض الناب يحمل أي محبة لسيده، لكنه كان يدرك المهام الموكلة إليه جيدًا، وينفذها، وقد عاش حياته كلها يأمل أن يتجنب الضرب القاسي، وكان ذلك هو كل ما في الأمر.

بعد رحيل أم أبيض الناب، لم يحدث قط أن منحه أحد لمسة حانية ودودة؛ لم يهمزه أحد بأنفه؛ بل لم يشعره أحد بالأمان. بعد وقت قليل، لم يستطع أن يستحضر ملامحها، لكنه أدرك أن شيئًا ما مفقود في حياته؛ شيئًا ما وثيق الصلة بالدفء والحب، غير أنه لم يمتلك القدرة على أن يسمي هذا الشيء. ولمّا كانت حياته حالة من الضغط المستمر، فقد تسبب ذلك فيما تحول إليه من القسوة والخسة، وفقد كل ثقة في الإنسان والكلاب على حد سواء.

استمر ليب-ليب في محاولاته لإرهابه، لكن أبيض الناب شرع الآن في المقاومة، وغالبًا ما كان الانتصار حليفه. جرت عادته أن يتقاتل مع أي كلب يقترب منه، وكان يسرق الطعام وقتما شاء، وربما عض أي فرد يمر أمامه — سواء أكان رجلًا أم طفلًا أم امرأة — أو هرًّ في وجهه. لم يكن له أي أصدقاء، ولم يدرك ما الذي يفقده، فمن الصعب أن يفقد المرء شيئًا لم يسبق له قط أن حازه.

الفصل الحادي عشر

الهروب

أصبح أبيض الناب مقاتلًا ماهرًا، فقد تعلم أن ينقض على الكلاب الغافلة، وأن يقلبها على ظهرها، ثم يهجم على بطونها. ولهذا السبب تحديدًا، تحاشته الكلاب جميعًا، وكانت معاركها معه تنتهي سريعًا بطرده إلى خيمته. وفي المرات النادرة التي تشهد غياب الرجال، كانت المعارك تزداد خطورة؛ إذ كانت الكلاب تستمر في القتال إلى أن يعلن أحدها الاستسلام ويدعى إلى هدنة. وبينما ازدادت خسة أبيض الناب كل يوم عن اليوم الذي يسبقه — مع تلقي المزيد من الضرب من جراي بيفر والقسوة من الكلاب الأخرى — قلت قدرته على الاستسلام، إلى أن جاء يوم قُتل فيه أحد الكلاب.

كانت المعركة مخيفة وسريعة للغاية، وكان أبيض الناب شديد البأس والثقة فيها، حتى إن المعركة لم تدم سوى بضع دقائق. بعد ذلك ركض أبيض الناب إلى المنزل، وجلس إلى جانب سيده بجوار النار وكأن شيئًا غريبًا لم يحدث. لم يكن أبيض الناب يدرك أنه اقترف أي خطأ، فلم يكن هناك من يوجهه أو يدله على الصواب.

جاء صاحب الكلب الآخر إلى جراي بيفر، وطلب منه أن يعوضه عن خسارته، لكن جراي لم يلتفت إليه، وقال له: «لا يمكن للمرء أن يغير طبيعة الذئب، وأبيض الناب هو ذئبي.»

في تلك الليلة بجوار النار، أعطى جراي بيفر أبيض الناب قطعة إضافية من اللحم، وقال له: «أنت مقاتل حقيقي.»

كانت هذه كلها دروسًا صعبة للذئب، فقد كوفئ على قسوته وقدرته القتالية. كان همه الوحيد في الحياة هو أن يبث السعادة في نفس سيده، ووقع في ظنه أن القتال هو أفضل طريقة لذلك.

كان جراي بيفر سريع اللجوء دائمًا إلى ضرب أبيض الناب، وكان من الصعب أن يفرِّق الذئب بين الصواب والخطأ، وكان الضرب يأتيه في أوقات من غفلته. فمثلًا، عندما سرق سمكة من يد طفل صغير، لم يضربه جراي بيفر على ذلك، وعندما أتى والد الطفل ليشكو ما فعله الذئب مهددًا بأن يرديه قتيلًا، دافع عنه جراي بيفر. مع ذلك عندما كان أبيض الناب يعود إلى خيمته في نهاية اليوم، ربما تلقى ركلة دون تحذير سابق عند اقترابه من النار. ولم يعرف قط ماهية الضربة أو السبب وراءها، لكنه اعتاد أن يتوقع الأسوأ.

كانت الأيام تزداد قصرًا يومًا بعد الآخر، وقد شرعت القبيلة في حزم الأمتعة وفض المخيم والانتقال إلى الجنوب من أجل قضاء الشتاء هناك. راقب أبيض الناب كلو-كوتش أثناء حزمها للأمتعة، وكذلك جراي بيفر أثناء وضعه تلك الأمتعة على مزلجة، ثم تجول حول المخيم، ورأى أن الجميع يفعل ما يفعله سيده وزوجته، فأدرك أن الأشياء من حوله تتغير ثانيةً.

كانت معظم الأُسَر قد رحلت بالفعل عندما ذهب أبيض الناب إلى الغابة، على أنه لم يبتعد كثيرًا إلا بقدر ما يكفي لاختفائه. سمع صوت جراي بيفر يناديه. كان من الصعب للغاية ألا يطيع سيده، غير أنه لزم مكانه ولم يبرحه. بعد فترة قليلة، توقف جراي بيفر عن الصياح، وساد الصمت أرجاء المخيم، وأدرك الجرو أنه الآن وحيد داخل البرية.

الفصل الثاني عشر

العودة إلى المنزل

كان الليل يرخي سدوله، وكان أبيض الناب قد قضى قليلًا من الوقت في اللعب بين الأشجار تغمره سعادة كبيرة بهذه الحرية، وأخذ يجري سريعًا، ويقفز فوق الصخور، ويبحث عن السناجب. استمر أبيض الناب في اللعب حتى ذهب آخر خيط في ضوء النهار، وكانت سماء هذه الليلة صافية قد سطعت فيها نجوم كثيرة وبان في الأفق قمر أبيض منير. استمع أبيض الناب إلى أصوات الغابة من حوله، فوجدها هادئة تمامًا؛ أكثر هدوءًا من الحياة في المخيم.

حينئذٍ أدرك فجأة معنى الوحدة. جلس وأنصت لصوت الصمت الذي بث الرعب في قلبه، ثم عقب ذلك أن خالطه شك في وجود خطر ما، لكن لم يكن لديه فكرة عن ماهيته، فقد مضى وقت طويل للغاية على آخر مرة كان فيها وحيدًا أو داخل البرية.

ركض أبيض الناب حتى عاد إلى أرض المخيم المهجورة، وكان يشعر بالجوع والبرد والذعر. وهنا أدرك أنه قد ارتكب خطأً كبيرًا بتخلفه عن ركب المخيم، فقد اعتاد كثيرًا على حياة الرفاهية التي يحياها مع الإنسان وعلى حماية سيده له. وسرعان ما افتقد دفء النار ورائحة غليون جراي بيفر. أخذ يفكر أنه في مثل ذلك التوقيت كانت السيدة كلو-كوتش ستقذف إليه سمكة العشاء، وكان متساه سيحكي ما حدث له في يومه.

ذهب إلى المكان الذي نُصبت فيه خيمة جراي بيفر فيما مضى. لا يزال المكان يعبق برائحة سيده وأسرته، واستطاع أن يرى الحفرة التي أُوقدت فيها نارهم. وكانت الخيمة قد تركت علامة دائرية على الأرض. جلس على الأرض، ورفع رأسه إلى السماء، وبدأ في العواء، وكان عواؤه طويلًا قويًّا ومحزنًا يشبه عواء الذئاب. كانت هذه أول مرة يعوي فيها في حياته.

هدَّأ انكسار خيوط الفجر التالي من روعه، لكنه كان لا يزال يتوق إلى العودة إلى الإنسان، حينئذ عدا على طول ضفة النهر. لم يكن يعرف أين ذهبت أسرته، أو هل يعدو في الاتجاه الصحيح أم لا. اعتمد الذئب في ذلك الوقت على الغريزة، وأمضى بقية النهار يجري داخل الغابة ويعود إلى النهر يقطع الأرض جيئة وذهابًا. بعد ذلك توقف لينصت أملًا أن يسمع أصواتًا بعيدة أو كلابًا أخرى. غير أنه لم يكن هناك سوى صوت الرياح. أخذ يتشمم الهواء والأرض محاولًا تقفي أثر القبيلة، غير أنه كان من الصعب تعقب الرائحة على هذه الأرض المتجمدة.

وعندما بزغ القمر في كبد السماء ثانيةً شم رائحة شيء مألوف، وكان ذلك الشيء لحمًا يُطهى على النار، فركض بأقصى سرعته.

كان جراي بيفر وكلو-كوتش ومتساه قد توقفوا عن السير ليلًا، وكانوا ينوون الانضمام إلى بقية القبيلة على الجانب الآخر من النهر في الصباح. في هدوء تام، تسلل أبيض الناب إلى مخيمهم.

زحف تجاه النار، وكانت كلو-كوتش تقلِّب اللحم فوقها بينما يُصلح متساه بعض الجلود من أجل كلاب المزلجة. على الأسرة أن تكون على أهبة الاستعداد للرحيل عندما يسقط الثلج. تحرك أبيض الناب إلى جانب جراي بيفر متوقعًا أن ينال حظه من الضرب كالعادة، وفي شيء من الإذعان للأقدار، جلس في خنوع إلى جانب سيده.

وبدلًا من أن يتلقى ركلة قوية من جراي بيفر، إذ به يضحك ضحكة خافتة، ثم يقول: «عجبًا! انظروا مَن ظهر!»

أشار جراي بيفر بيده إلى كلو-كوتش مخبرًا إياها أن تعطيه بعض اللحم قائلًا لها: «أعطه أكبر قطعة لديك؛ فقد عاد ذئبنا إلى المنزل.»

استلقى أبيض الناب عند قدم سيده، وأخذ يحدق في النار التي بثت في جسده الدفء بعينين طارفتين تغالبان النعاس، وقد أدرك أنه في الصباح لن يعاني البرد القارس أو الغابة الموحشة؛ بل سيكون في أمان مع الإنسان. وبعودته إلى المخيم، تخلى تمامًا عن حياته في البرية، وأدار ظهره لما ورثه من طبائع الذئاب، واختار سيده بدلًا منها. فقد بات الآن معتمدًا اعتمادًا كليًّا على الإنسان وعلى طعامه وناره.

الفصل الثالث عشر

المجاعة

أتم أبيض الناب عامه الأول، لكن لم يكن هناك من يهنئه بذكرى مولده، بل لم يعرف أحد أن مثل هذه الذكرى قد حانت. لكن أبيض الناب لم يلتفت إلى ذلك، فلم يكن ذلك بالشيء الذي يشغل بال الذئاب.

مضت حياته كما كانت عليه في السابق؛ فقد تجنب الاقتراب من الكلاب إلا وقت العمل في فريق المزلجة، وقضى جزءًا كبيرًا من وقته في العدو حول المخيم وبين الأشجار، واشترك في معارك عديدة، وطارده كثيرون من أهل الخيام بسبب السرقة، وكثيرًا ما ضربه جراي بيفر.

مع مرور الوقت أصبح سيده أكثر وضاعة من ذي قبل، إذ كان يستغل خوف الأشخاص من أبيض الناب. آثر الآخرون الابتعاد عنه. عضَّ أبيض الناب أطفالًا كثيرين، وأرهب بهريره نساء كثيرات. حتى الهنود الحمر في المخيمات الأخرى سمعوا بهذا الذئب، وأتى بعضهم لزيارة جراي بيفر كي يتمكنوا من رؤية أبيض الناب وجهًا لوجه. أما جراي بيفر فقد أصبح قبلة للمعجبين وكأنه ملك يجلس فوق عرشٍ، وكان أبيض الناب مملكته.

مضى عام آخر على النحو نفسه، وبلغ أبيض الناب عامين، ومرة أخرى لم يلحظ أحد ذلك أو يلتفت إليه. غير أن أيامه كانت لا تزال حافلة بالمعارك وبحماية ممتلكات جراي بيفر أو بتفادي الضربات التي تأتيه من سيده. كانت تلك حياة أبيض الناب، ولم يظن قط أنها ينبغي أن تكون مختلفة عن ذلك.

استمر الحال على هذا المنوال حتى كان في ذكرى مولد أبيض الناب الثالثة أن ذاق الجوع الحقيقي ثانيةً. ضربت «نورثلاند» مجاعة أخرى عانى منها الجميع. في تلك الأثناء لم تكن هناك أي أرانب في أي فخ من الفخاخ، وكانت الأسماك نادرة للغاية، بل لم

يكن هناك طعام كافٍ لإطعام أفراد القبيلة. لذلك رحلت كلاب عديدة، ومن بينها أبيض الناب، إلى البرية؛ فأمامها فرصة للاعتماد على نفسها داخل الغابة.

كان أبيض الناب مؤهلًا أكثر من غيره لهذه الحياة، فقد عرف الذئب الصغير الكثير عن الحياة في البرية. وهكذا سرعان ما عاد أدراجه إلى أنماط الحياة القديمة. مر على مناطق مألوفة، وزار أماكن قديمة. عثر على الكهف الذي اعتاد هو وأمه الحياة بداخله، وكذلك النهير الذي سقط فيه، وأخذ يتعقب الآثار القديمة وبحث في الأعشاش وجحور الأرانب في طريقه، لكن لم يكن هناك الكثير من الطعام.

عاش أبيض الناب أسابيع يتغذى على السناجب أو الطيور الصغيرة التي يعثر عليها بين الحين والحين، وفي أحد الأيام تمكن من اصطياد أرنب لكنه لم يسد جوعه الذي استمر أسابيع عدة. لم يتمكن من تذكر المجاعات السابقة. فعندما كان جروًا صغيرًا؛ كان أبواه يعثران له على الطعام، وقد حافظا على حياته في الوقت الذي مات فيه جميع إخوته. أما الآن بعد أن بات وحيدًا، أخذ يأسه يزداد يومًا بعد الآخر.

حاول العودة إلى معسكر الهنود الحمر، لكنه لم يتوغل فيه كثيرًا، تجول من طرف خفي حول الوجهة الخارجية من أرض المخيم يتشمم بقايا الطعام، لم يكن هناك الكثير من الطعام ليسرقه. كانت الغالبية العظمى من الفخاخ فارغة. عرف أبيض الناب أن اليأس والقلق قد وجدا طريقهما إلى قلوب الهنود الحمر أيضًا، وعرف كذلك أنه ليس لديهم الكثير لكي يقدمونه له. بحث عن فخاخ الأرانب التي كانوا ينصبونها؛ فعندما كان العيش رغدًا داخل أرض المخيم، جرت عادة أبيض الناب أن يغزو هذه الفخاخ وينقض على ما فيها من لحم الأرانب الطازج قبل أن يعثر عليها الرجال. لكن لم يكن هناك أي شيء الآن. عاد أبيض الناب أدراجه إلى الغابة فرحًا بأي طعام يمكنه العثور عليه.

أثناء هذه الفترة الطويلة التي قضاها أبيض الناب دون طعام، إذ به يلتقي مصادفة بالكلب ليب-ليب. كان الكلب الذي يكبر أبيض الناب سنًّا قد اتخذ هو الآخر من الغابة مأوى له، ولم يكن لقاؤهما متوقعًا قط. فأثناء سيرهما في اتجاهين متقابلين على طول قاعدة جرف صخري مرتفع، إذ بالاثنين يدوران حول جانب إحدى الصخور ويلتقيان وجهًا لوجه.

على الفور وقف الشعر الذي يغطي ظهر أبيض الناب، وزمجر وكشر عن أنيابه، ثم انقض على غريمه قبل أن تواتيه الفرصة للتفكير في ذلك الهجوم. لم تستغرق المعركة وقتًا طويلًا، فلم يكن ليب-ليب خبيرًا بحياة البرية مثلما كان الذئب، كما أنه لم يُوفَّق

في العثور على بعض فضلات الطعام، ولذلك لم يكن على الدرجة نفسها من القوة. في النهاية انتصر أبيض الناب في تلك المعركة، وبعد طول انتظار، حظي بوجبة شهية.

أخيرًا أصبح الصيد سهلًا، فقد عثر أبيض الناب على المزيد من الطعام في طريقه داخل البرية، وجرت عادته أن يأكل نصيبه ويترك ما تبقى للآخرين، وكانت هذه العادة أحد الأشياء التي علقت بذهنه من الدروس الأولى التي كانت أمها تلقنه إياها؛ فلا بد له أن يأكل ما يكفيه فقط.

بدأ أبيض الناب يعود أدراجه تجاه النهر دون أن يطيل التفكير فيما حدث. وانجرف مع ذكريات الفترة التي قضاها داخل البرية. وذات يوم وجد نفسه على مقربة من المخيم، وقد أضحى في تلك الأثناء مكانًا أكثر بهجة يجري فيه الأطفال ويضحكون ويُطهى فيه اللحم على النار. في هذه المرة دخل أبيض الناب إلى أرض المخيم على الفور.

رحب جراي بيفر بعودته بإيماءة. لم يتحدث إليه أو يعطه قطعة طازجة من اللحم، بل استمر في ترميم شباك الصيد، بينما جلس أبيض الناب إلى جواره. وهكذا عاد الاثنان إلى عاداتهما اليومية، وكأنهما لم يفترقا قط.

الفصل الرابع عشر

بيوتي سميث

في الخريف ترك جراي بيفر وأبيض الناب مخيم الهنود الحمر، وسافرا على طول ضفة نهر ماكينزي ومنه إلى جبال روكي. استمرت رحلتهما بضعة شهور؛ إذ كانا يتوقفان في طريقهما من أجل التخييم والصيد. شعر أبيض الناب بالهدوء في تلك الفترة، إذ لم تكن هناك كلاب أخرى؛ وحده كان جراي بيفر معه. تمنى أبيض الناب — إن كان للذئب أن يتمنى — أن تكون هذه بداية حياة جديدة، لكن هذه الآمال لم تلبث أن تلاشت.

وصل جراي بيفر وأبيض الناب إلى مدينة «فورت يوكون» الكندية في فصل الربيع، وكانت هذه المدينة هي معقل التجارة الخاصة بشركة «هادسون باي»، وكانت ملتقى جميع الأشخاص الذين يصلون إلى هذه المنطقة من الشمال. وكان بهذه المدينة كثير من الناس والطعام والبهجة، غير أن بضعة أشخاص فقط هم من تمكنوا من أن يحيوا هناك حياة مستقرة. كانت أعداد السكان ترتفع وتنخفض مع وصول السفن ورحيلها، وكانت المدينة تكتظ بأناس يجيئون ويذهبون.

كان ذلك في عام ١٨٩٨، وكان آلاف من الباحثين عن الذهب يتجهون شمال «يوكون» إلى مدينتي «دوسون» و«كلونديك». أرادوا جميعًا أن يجمعوا ثروة طائلة، لكن قليلًا منهم فقط هو من فعل ذلك، فالجزء الأكبر من هؤلاء الأشخاص عاد إلى منزله فقيرًا كما كان عندما تركه فيما مضى. كان الشمال يضعف عزم الرجال. قليلون هم من كانوا على درجة من القوة جعلتهم يتحملون الطقس والوحدة والخطر. أما الرجال والنساء الذين عاشوا في «فورت يوكون» فقد اعتبروا أنفسهم جنسًا خاصًّا، وكانوا يسخرون من الوافدين الجدد، فيعقدون فيما بينهم المراهنات على مَن مِن الوافدين ستكلل مساعيه بالنجاح ومن منهم سيواجه الإخفاق. وعندما يحالف الحظ أحد هؤلاء الوافدين ويجد ذهبًا، كانت الأموال تتدفق في أرجاء المدينة.

كان جراي بيفر قد سمع عن حمى الذهب، وكان قد جاء ومعه بالات عديدة من الفرو وبالة أخرى من الأحذية الجلدية والقفازات. وعلى نحو تدريجي وحذِر استقرت أحواله في التجارة. فقد أراد هو الآخر أن يجني ثروة، حتى إن قضى في ذلك فصل الصيف كله والشتاء القادم أيضًا.

في الوقت الذي انشغل فيه جراي بتجارته، اعتاد أبيض الناب النزول إلى الشوارع، واندهش الناس لرؤية ذئب. لكن بفضل الأعوام التي قضاها أبيض الناب في المخيم، كان مقاتلًا متمرسًا بالفعل، وسرعان ما صار أبيض الناب «مَلِك» مدينة «فورت يوكون».

قاتل أبيض الناب أي كلب يمر في طريقه، وكان الفوز حليفه على الدوام؛ إذ لم يكن من بين كلاب هؤلاء الرجال البيض من هو ند قوي لأحد الذئاب. ولمّا كان جراي بيفر لا يحتاج أبيض الناب في العمل أو يأبه بتجواله بعيدًا، كان القتال هو ما يشغل الجزء الأكبر من أيامه، لذلك سرعان ما اشتُهِر.

فكان إذا توقف أمام متجر أو مكتب، أسرع شخص من داخل هذا المتجر أو المكتب لكي يطرده بعيدًا؛ إذ لم يرغب هؤلاء في خسارة عملائهم بسبب الذئب، وقد أدركوا أنه لن يجرؤ أحد على أن يمر من أمامه. وقد وصل الحال إلى أن ألقى قس في الكنيسة خطبة عنه، ادعى فيها أن الذئب علامة للشيطان وأنه لا بد أن يوقَف، لذا كان الناس يعبرون الشارع بعيدًا عنه ليجتنبوه.

غير أن شخصًا بعينه هو من لاحظ أبيض الناب عن قرب، كان ذلك الشخص يدعى بيوتي (التي تعني الجمال) سميث، مع أنه لم يكن له نصيب كبير من الجمال. كاد صيت هذا الرجل يكون سيئًا مثل صيت الذئب، فلم يكن له أي أصدقاء وكان أعداؤه كثيرين. عمل ذلك الرجل في وظائف متعددة، لكن جرت العادة أن يفصل منها جميعًا، وقد مارس السرقة والكذب والمقامرة بالأموال القليلة التي كان يمتلكها. وكان بيوتي، مثله في ذلك مثل كثيرين غيره، قد جاء إلى «فورت يوكون» باحثًا عن الذهب، غير أنه قرر، على عكس ما فعل غيره، أن يبقى في المدينة. لكن لم يكن السبب في ذلك حبه للمقاطعة أو الصعوبات التي يعج بها الشمال، بل لأنه في حقيقة الأمر لم يكن لديه مكان آخر يذهب إليه، فقد كانت «نورثلاند» وغيرها من المدن عنده سواء.

جرت عادة الأفراد في «فورت يوكون» على أن يضايقوا بيوتي ويسبونه، وهكذا كان حال الجزء الأكبر من حياته. من أجل ذلك كان رجلًا فظًّا غيورًا، وما إن رأى عظم قوة أبيض الناب حتى أراد هذا الذئب لنفسه، فقد ظن أنه والذئب يشتركان في كثير من الصفات.

الفصل الخامس عشر

اتفاقٌ جديد

أراد بيوتي سميث أبيض الناب لنفسه، ولم يكن أي شيء ليمنعه من الحصول عليه. كان يدرك أن انتزاعه من سيده لن يكون أمرًا سهلًا. فعلى الرغم من أن جراي بيفر لم يهتم بأبيض الناب كثيرًا، فقد أدرك قيمته الكبيرة، إذ كان أقوى كلب مزلجة امتلكه في حياته. لذلك احتاج بيوتي إلى خطة.

في تلك الأثناء، كان جراي بيفر قد قارب على إنهاء عمله في «فورت يوكون» وبصدد الاستعداد لرحلة العودة الطويلة إلى موطنه. في أحد الأيام تسلل بيوتي إلى المخيم عندما علم بوجود جراي بيفر في المدينة، وباستخدام فأس ثقيلة، شق مزلجة جراي بيفر إلى نصفين، وكسر الزلاجات، وحطم هيكلها، فلم تكن هناك أي طريقة لمغادرة «فورت يوكون» أثناء الشتاء دون المزلجة.

كانت خطوة بيوتي التالية هي أن يسرق مزلجة جديدة وأفضل بكثير من مزلجة جراي من شركة «هادسون باي». بعد ذلك عرض على جراي بيفر أن يعطيه المزلجة الجديدة مقابل أبيض الناب. أنعم جراي بيفر التفكير في هذا الأمر، فقد كان يؤلمه أن يترك الذئب، لكنه كان في حاجة إلى المزلجة ليعود إلى بلدته، وفي النهاية، وافق جراي على إتمام الصفقة.

ربط بيوتي سميث قطعة من الجلد حول رقبة أبيض الناب، وانطلق به. لم يرغب الذئب في الذهاب معه، وشد الحبل في قوة، وتباطأ في السير. غير أن سيده أمره بالذهاب مع هذا الرجل الجديد، لذلك توقف الكلب عن المقاومة، لكن ساوره قلق شديد، إذ خلَّف هذا الرجل بداخله شعورًا بعدم الارتياح.

سرعان ما بيَّن بيوتي لأبيض الناب أنه المسئول عنه، إذ فاجأه بركلة على جانب رأسه شلَّت حركته. لم يكن لدى الذئب وقت للرد، فسرعان ما ألقى به بيوتي في قفص حديدي، وأحكم غلق الباب ثم رحل.

كان ذلك شكلًا من أشكال التعذيب في نظر أبيض الناب، فلم يحدث من قبل قط أن وقع في شرك أو حُبِس في مثل هذه المساحة الصغيرة. كانت غرائزه وطبيعته تتطلبان مساحة يتجول فيها كيفما شاء. تحرك أبيض الناب خطوات إلى الوراء وإلى الأمام حسبما استطاع. كان يشعر بالذعر والغضب، ولم يفهم كيف سمح سيده جراي بيفر بحدوث ذلك كله.

أحضر له بيوتي الطعام والماء، لكنه لم يكن يدعه يخرج من القفص، وكان يكِزُه بعصا من بين قضبان القفص الحديدية. هرَّ أبيض الناب، وعض العصا، وحاول أن ينقض على بيوتي، لكنه لم يتمكن من المرور من بين القضبان. استمر هذا الحال مدة أيام لا يخرج فيها أبيض الناب من القفص إلا لينال نصيبه من ضربات بيوتي وركلاته. لذلك كان غضب أبيض الناب يزداد يومًا بعد يوم وكذلك خطورته ومعهما اشتياقه إلى الهرب.

في النهاية سنحت له فرصة للهرب عندما فتح بيوتي باب القفص على مصراعيه، فقفز منه أبيض الناب مسقطًا سيده القاسي أرضًا. لم يتوقف الذئب دقيقة واحدة، بل فر راجعًا إلى جراي بيفر، فلا بد أن هناك خطأ ما، ولا بد أن سيده يتساءل ما الذي حدث له.

تعجب جراي بيفر عندما رأي الذئب عائدًا إليه، وكان قد قارب على الانتهاء من حزم الأمتعة على مزلجته الجديدة، وكان سيبدأ الرحلة في أي وقت. جرى أبيض الناب ووقف إلى جانبه.

سأله جراي بيفر: «ماذا تفعل هنا؟»

رفع أبيض الناب بصره إليه، ولم يكن يعرف هل سيشيد بفعلته أم سيضربه، لكن لم يكن ذلك بالأمر الذي يشغل باله. عرف أبيض الناب أنه موجود الآن حيث ينتمي. قال له جراي بيفر: «لقد بعتك بيعة عادلةً منصفةً، ويجب أن تعود أدراجك.»

وجد جراي بيفر حبلًا ربطه حول رقبة أبيض الناب، وقال: «لنذهب، فأنت لا تنتمي إلى هنا بعد الآن.»

تبع أبيض الناب سيده مثلما كان يفعل دومًا، وعندما وصلا إلى بيت بيوتي سميث وناوله جراي بيفر الحبل توقف أبيض الناب عن المقاومة، فقد عرف أن ذلك هو مصيره.

وعلى الرغم من أنه لم يستطع استيعاب القوانين التي تحكم عالم البشر، فقد عرف أنه لا بد أن يذعن لها ويطيعها.

أغلظ بيوتي في ضربه حتى إن أبيض الناب أصابه الإعياء. بعدها ألقى بالذئب مرة أخرى إلى داخل قفصه وأحكم إغلاقه، وحرص بعد هذه التجربة ألا يفتح باب القفص مطلقًا على ذلك النحو من دون احتراس. ومع ذلك لم يكن ذلك الحرص ضروريًّا، فلم يحاول أبيض الناب الهرب قط بعدها. ألا يوجد شخص اعتاد على إنقاذه؟ شخص يهرع إلى الغابة لإنقاذه من الخطر؟ لم تكن تلك سوى ذكريات تدور في عقله. لم يعد قادرًا على تذكر أمه أو لمستها الحانية. وهكذا أذعن لمصيره الذي قضى له بأن يبقى برفقة بيوتي سميث. كان مصيره أن يصير أكثر وضاعة وغضبًا وحقدًا مما كان في أي وقت مضى.

الفصل السادس عشر

الذئب المقاتل

حان وقت عودة أبيض الناب للعمل، لكن العمل هذه المرة كان جديدًا كل الجدة. كان بيوتي سميث يروِّج له على أنه «أبيض الناب: الذئب المقاتل». وكان الرجال يدفعون الأموال من أجل مشاهدة أبيض الناب يقاتل الكلاب الأخرى حتى الموت في أغلب الأحيان. فكانوا يعقدون المراهنات على الكلاب التي ستفوز، ولم يكن القتال مقتصرًا على الكلاب فقط، إذ واجه أبيض الناب ذئابًا مثله، بل كان في بعض الأحيان يقاتل السنانير.

تعلم أبيض الناب أن يستمتع بالقتال، فلا شك أنه فضَّل قتال غيره من الحيوانات على تلقي الضربات من بيوتي. وكان يزداد حماسة متى اجتمع الرجال حول القفص، إذ كان ذلك يعني أن قتالًا في الطريق إليه.

كان بيوتي سيدًا شديد القسوة، إذ كان يتلذذ بضرب الذئب. ومثله مثل جراي بيفر، منحه امتلاكه لمثل ذلك الذئب القوي شعورًا بالقوة والزهو، غير أن بيوتي كان لئيمًا، فلم يظهر للذئب الرحمة أو يمنحه الحماية أو يعامله معاملة عادلة قط، ولم يدعه قط يتجول ويتبع طبيعة الذئب الكامنة بداخله، بل حبسه دائمًا في القفص إلا عند القتال مع الحيوانات الأخرى.

ذات يوم، وُضع كلب جديد غريب مع الذئب في حلبة القتال، وتجمع عدد كبير من الرجال — أكثر بكثير مما يحدث في العادة — ليشاهدوا أبيض الناب يقاتل كلبًا إنجليزيًّا من فصيلة بولدوج. في البداية ظن أبيض الناب أن مهمته ستكون سهلة، فقد كان ذلك الكلب صغير الحجم بدينًا، ولن تكون هناك أي صعوبة في طرحه أرضًا والسيطرة على الموقف. بدا البولدوج كالمبتسم، وهز ذيله لسيده وقد تدلَّى لسانه خارج فمه.

لكن لم يكن القتال سهلًا، بل كان واحدًا من أصعب المعارك التي خاضها أبيض الناب، فنظرًا لأن كلب البولدوج قصير الأرجل عريض الجسم، لم يستطع أبيض الناب

طرحه أرضًا. علاوةً على ذلك، كان فكاه شديدي القوة. فما إن أحكم البولدوج سيطرته على الفرو الذي يغطي رقبة أبيض الناب حتى عجز الذئب تمامًا عن تحرير نفسه، وظل الاثنان مشتبكين فترة طويلة.

تجمع الرجال حول القفص يصفقون، ويحثونهما على الاستمرار. تراهن الرجال على الكلب الفائز؛ وكلما طال القتال، زادت الأموال التي يتراهنون عليها. وقد أثلج ذلك قلب بيوتي، فهو يجني أموالًا كثيرةً الآن وذئبه هو محط أنظار الجميع.

لم يلحظ أبيض الناب وجود رجلين كانا قد انضما إلى المتفرجين، ولم يشتركا في التصفيق والمراهنة كغيرهما. بدا أحدهما غاضبًا وهو يشاهد الكلاب تتقاتل، وأخذ يتفحص وجوه المتفرجين.

كان أبيض الناب يخسر المعركة، إذ لم يستطع الإفلات من قبضة كلب البولدوج. علت الصيحات عندما شرع الذئب في السقوط. في ذلك الوقت، أدرك بيوتي أنه على وشك خسارة الكثير من الأموال وأن طريقه إلى الشهرة والثروة قد أوشك على الانتهاء، فانخرط في موجة من الغضب العارم، وعلى الفور انقض على الحلبة وبدأ في ركل أبيض الناب. تعالت صيحات الغضب والاستهجان من جانب الحشد، لكن ما حدث كان قد حدث.

التفت الوافد الجديد — وهو شاب حليق — إلى الرجال، وصاح: «أيها الجبناء! أيها المتوحشون!»

بعد ذلك قفز إلى الحلبة، وضرب بيوتي ضربة قوية على وجهه طرحته أرضًا فوق الثلج دون أن يدري من ضربه.

قال الشاب مناديًا على صديقه: «فليساعدني أحد على إبعاد هذين الكلبين أحدهما عن الآخر. تعال إلى هنا يا مات.»

وعلى الفور تبع مات صديقه إلى الحلبة قائلًا: «أنا هنا يا ويدون.»

وقف بيوتي على قدميه مرة أخرى، ورجع إلى الغريب، لكنه لم يقطع إليه مسافة كبيرة حتى أسقطه الشاب مرة أخرى على الأرض. أدرك بيوتي سميث أن الثلج كان أكثر الأماكن أمانًا وأنه لن يبذل أي محاولة أخرى للنهوض.

الفصل السابع عشر

ويدون سكوت

أمسك ويدون ومات كلب البولدوج، وحاولا أن يبعداه عن الذئب، ولم يكن ذلك بالعمل السهل. ففي بطء شديد فتح ويدون فم البولدوج، وباعد بين فكيه في الوقت الذي عمل فيه مات على تحرير رقبة الذئب الجريح من بينهما.

سقط أبيض الناب على الأرض، وكان تنفسه مضطربًا، ولم تكن لديه القوة الكافية للوقوف على قدميه، فنام على الثلج، لقد أصابه الدوار، ولم يدرك وجود الرجلين اللذين يتحدثان فوقه.

سأل ويدون: «مات، كم يساوي كلب مزلجة جيد يا مات؟»

فكر مات دقيقة، ثم قال: «في رأيي ما يقرب من ثلاثمائة دولار.»

فسأله ويدون وهو يشير إلى أبيض الناب: «وكم يساوي كلب جريح مثل هذا؟»

فرد مات الذي كان صانعًا للمزلجات التي تجرها الكلاب: «نصف ذلك المبلغ.»

في ذلك الوقت، كان بيوتي قد وقف على قدميه مجددًا، ووقف إلى جانبهما، وقال: «أنا لا أبيعه.»

وجه ويدون قبضة يده إلى بيوتي.

تأوه بيوتي قائلًا: «إن لي حقوقًا.»

نظر إليه ويدون، وقال: «لقد أسقطت حقوق ملكيتك لهذا الكلب عندما ضربته ووضعته في الحلبة؛ فهل ستأخذ الأموال أم لا؟»

رد بيوتي في هدوء: «حسنًا، لكنني سآخذ هذا المال مجبرًا. الكلب يساوي الكثير من المال، ولن أتخلى عن حقي.»

أدار له ويدون ظهره، وعاد لمساعدة مات الذي كان يسعف أبيض الناب.

وقف بعض الرجال خارج الحلبة يشاهدون ما يحدث. سأل تيم كينان، مالك كلب البولدوج: «من هذا الرجل؟»

أجاب أحدهم: «إنه ويدون سكوت. وهو خبير في التنقيب عن الذهب.»

قال كينان مستهجنًا: «حسنًا، وأظن أنه خبيرٌ في الذئاب أيضًا.»

الفصل الثامن عشر

استئناس الذئب

قال ويدون: «إذن يا مات، هل تظن أنه لا أمل فيه؟»

جلس ويدون على عتبة كوخه وحدق في مات، ورد صديقه على ذلك بأن هز كتفيه.

نظر الاثنان إلى أبيض الناب في طرف سلسلته المشدودة. كان الذئب يهِرُّ، ويجذب السلسلة محاولًا الوصول إلى كلاب المزلجة.

سأل ويدون: «هل ثمة احتمال لاستئناسه؟»

قال مات: «لست واثقًا من ذلك؛ فربما لا يزال محتفظًا بداخله بالكثير من صفات الكلاب.» اقترب مات من الذئب أقصى ما استطاع، وحدق النظر فيه طويلًا دون أن يمسه.

عندها سأله ويدون: «حسنًا، ما الأمر؟ هيا، أخبرني بالحقيقة، لماذا تطيل النظر إليه على هذا النحو؟»

قال مات: «ذئبًا كان أم غير ذئب، فذلك كلب مدرب.» وأشار إلى العلامات الموجودة على فرو أبيض الناب حيث وضِع الطوق الجلدي الذي كان يشد إلى المزلجة من قبل.

كان ويدون مندهشًا للغاية وقال: «إنك على حق، لقد كان كلب مزلجة قبل أن يمتلكه بيوتي. لذلك ليس هناك سبب يمنع تدريبه ثانيةً.»

حذره مات: «لا تبالغ في الفرح، فقد مكث معنا أسبوعين، ويبدو أنه ازداد سوءًا.»

تأمل ويدون الأمر دقيقة، وقال: «لا بد لنا أن نثبت له أننا لا نعاقبه، وأننا لن نؤذيه.»

قال مات: «أظن أننا قد نجرب فك وثاقه.»

أدار ويدون فكرة صديقه في رأسه، ورآها تنطوي على مخاطرة، لكنه كان يعلم أن مات رجل يقظ، فرد عليه قائلًا: «حسنًا، لا بأس بذلك؛ فلتحرره من السلسلة ولنجرب حظنا!»

لم يصدق أبيض الناب أنه صار حرًّا، فقد ظل مع بيوتي سميث عدة أشهر لم يشم فيها ريح الحرية قط، غير أنه لم يعرف ماذا يفعل بها الآن. لا بد أن هناك خدعة ما. ظل يرقب الرجل البدين وهو يدور من حوله بينما دخل الآخر الكوخ. مكث أبيض الناب في مكانه يهر ورأسه منكَّسة.

قال ويدون أثناء خروجه من الكوخ: «إن كل ما يحتاجه هو قليل من عطف البشر.»

وعندئذ ألقى ويدون قطعة كبيرة من اللحم تجاه الذئب الجائع، وقبل أن يحظى مات بفرصة يثني فيها الكلاب الأخرى عن الاقتراب، انقض أحد كلاب فريق المزلجة على اللحم الطازج، وفي لمح البصر، انقض عليه أبيض الناب. على الفور جذب مات وويدن الذئب للخلف في الوقت الذي عدا فيه الكلب بعيدًا يئن من الألم.

وسرعان ما بدأ مات يدافع عن أبيض الناب، فقال: «اسمع يا ويدون، لقد مر هذا الكلب بتجربة قاسية، فليس لك أن تتوقع منه أن يكون لطيفًا ووديعًا كالملاك. لا بد أن تعطيه الوقت.»

رد ويدون: «لا تقلق، فهذا خطأي أنا، لقد نسيت أن كلاب المزلجة قد تقفز على اللحم.» بعد ذلك تحول بنظره إلى أبيض الناب. كان الذئب مضطربًا ومذعورًا، ينتظر أن تأتيه ضربة أو أي نوع من الإيذاء.

قال ويدون: «لا بأس إذن، سنجرب شيئًا آخر.»

سار ويدون نحو أبيض الناب، نصحه مات أن يمسك عصا في يده، لكنه هز رأسه رافضًا ذلك، وراح يتحدث إلى الذئب في صوت رقيق. كان أبيض الناب يتوقع الضرب، فقد هجم على ممتلكات هذا الرجل وألحق الأذى بأحد كلابه، غير أن ذلك الرجل بدا له غريبًا في تصرفاته. فقد كان صوته مختلفًا؛ فكان رقيقًا ومنخفضًا. كان هناك شيء جديد، وكان أحد الأشياء التي ألفها أبيض الناب أن أي «جديد» نادرًا ما يكون أفضل مما سبقه.

انتفض شعر أبيض الناب، وكشر عن أنيابه، وكان جسده يرتعد. لم يكن ذلك الرجل الجديد يمسك عصا في يده، ولم يكن يصرخ فيه أو يركله بقدمه أو يجذبه من سلسلته. جلس الرجل على مقربة شديدة منه. لكن عندما قرّب يده في بطء من أبيض الناب، أسرع بِعضِّه.

صرخ ويدون صرخة قوية ممزوجة بالدهشة، ثم سحب يده المصابة، وقبض عليها في قوة.

قال مات: «قد طفح الكيل»، وذهب إلى الكوخ لإحضار بندقيته، ثم قال: «لا يمكن أن نخاطر أكثر من ذلك، لا بد أن نقتله الآن.» ووجه بندقيته إلى أبيض الناب.

رد الذئب على ذلك بأن قفز إلى الوراء وانزوى إلى ركنه وهو يهِرُّ في وجه مات وبندقيته.

عندها قفز ويدون، وقال: «لا! لا، لم يكن ذلك خطأه.»

– «لقد عضَّك يا ويدون. ربما يفعل ما هو أسوأ من ذلك المرة التالية.»

أجاب ويدون: «انظر إلى ذكائه، إنه يعرف الأسلحة النارية كما تعرفها أنت تمامًا. انظر! والآن ضع بندقيتك.»

خفض مات بندقيته ليهدأ أبيض الناب بعدها مباشرة، ثم جلس بجوار السياج، وظل يراقبهما.

– «ارفع بندقيتك.»

رفع مات بندقيته كما أخبره ويدون، ورد أبيض الناب على ذلك بأن خفض رأسه وأخذ يئن، وانتصب فراؤه.

– «والآن، اخفضها ثانيةً.»

عاد أبيض الناب إلى هدوئه ثانيةً.

كان مات مندهشًا للغاية، وقال: «أتفق معك تمامًا، فالكلب شديد الذكاء مما يجعل قتله خسارة كبيرة.»

وهكذا بدأت إعادة التدريب مرة أخرى، إذ كان ويدون يجلس إلى جانب الذئب كل يوم ويتحدث إليه في صوت رقيق خفيض، فقد أراد أن يعتاد الذئب على صوته وأن يفهم معنى العطف. أراد ويدون سكوت لأبيض الناب أن يعرف أن الجميع لا يريدون إيذاءه، بل أراد له أن يتعلم أن يثق في الآخرين.

قال مات وهما يتناولان العشاء ذات يوم: «ما زلت خائفًا من جلوسك على مقربة شديدة من الذئب. لا أقول إنه لا يمكنك تهدئته، لكن هل ما زلت معتقدًا أن بإمكانك استئناس هذا الذئب؟»

قال ويدون في إصرار: «إنه لم ير عطفًا قط، وسوف يتعلم معنى العطف من خلال المعاملة الطيبة.»

أومأ مات برأسه في تباطؤ، فقد أدرك أن ما قاله صديقه صحيح، غير أنه كان يعرف أيضًا أنه لا يمكن التنبؤ بأفعال الحيوانات البرية، خاصة ما تعرض منها لإيذاء شديد. قال مات لصاحبه: «أنت أكثر مني تفاؤلًا، ففي رأيي أنه إذا لم يستطع البشر أن يكونوا رحماء فيما بينهم، فكيف تتوقع من ذئب أن يكون رحيمًا؟»

قال ويدون: «هذا هو محور الأمر كله، فالناس لا يحترم بعضهم بعضًا دائمًا، لذلك لا بد لك بين الفينة والفينة أن تغير العالم أجمع أشخاصًا وذئابًا.»

كان ويدون كل يوم، قبل أن يخرج إلى العمل، يذهب فيلقي نظرة على أبيض الناب، وكان في كل مرة، يجلس إلى جانبه ويقترب منه أكثر وأكثر. في النهاية، مد يده نحو الذئب الذي تشممها. مد ويدون يده أكثر ولم يكشر الكلب عن أنيابه. كان ويدون يقترب أكثر وأكثر حتى مع هرير الذئب إلى أن لمس الفرو الذي يغطي ظهره فوجده متسخًا متشابكًا. تساءل ويدون هل يمكن أن يثق فيه أبيض الناب ذات مرة بما يكفي لأن يسمح له بتنظيفه. تراجع الذئب قليلًا، لكنه سمح لويدون بالتربيت على ظهره.

خرج مات من الكوخ ليفرغ مقلاة طعام فرأى صديقه مع الذئب: «رباه، لا بد أنني أحلُم!» غير أن صوته قضى على جمال هذه اللحظة الساحرة، فتراجع أبيض الناب إلى الخلف مكشرًا عن أنيابه.

وقف ويدون على قدميه وسار نحو صاحبه، وقال: «لا أعرف يقينًا ما الذي سيحدث الآن، لكنني أظن أن أبيض الناب قد تعلم أخيرًا بعض الثقة.»

ولم تتوقف الدروس عند هذا الحد، فقد استمر ويدون في الجلوس على مقربة من الذئب والتحدث إليه. اعتاد الذئب تدريجيًّا على وجود أشخاص بالقرب منه، لكنه لم يكن قد أحب الملاطفة بعد. فعلى الرغم من سماحه لويدون بأن يمسه، فقد كان يهِرُّ طوال الوقت. غير أن ويدون لم يكن لينخدع بذلك كله، فقد استطاع أن يلحظ الفارق حتى وإن لم يلحظه أي شخص آخر. لم يكن ذلك هرير غلظة أو دناءة، بل كانت له نبرة أخرى؛ كان هريرًا يدل على الارتياح والحب المتزايد.

بعد نحو شهر من قدوم أبيض الناب لكي يعيش مع ويدون ومات، رأى الاثنان عودة للذئب الغاضب المتوحش. ففي إحدى الليالي بعد العشاء، كان الرجلان يلعبان الورق عندما سمعا هريرًا قويًّا آتيًا من الشرفة الأمامية. فتحا الباب ليريا الذئب وقد كشر عن أنيابه وهمَّ بالانقضاض على شيء ما في الظلام. نظر ويدون ومات في الظلام لكنهما لم يريا أي شيء، نادى مات: «هل من أحد هناك؟» لكن أحدًا لم يجبه.

فجأةً وثب الذئب من فوق السلالم وإذا بصوت رجل يصرخ من الألم. هرع مات ليحضر مصباحًا، بينما سار ويدون نحو الذئب.

قال ويدون للذئب: «اهدأ يا فتى، اهدأ!»

لم يهدأ أبيض الناب عند سماع صوت سيده، وإنما استمر في التذمر والزمجرة والهرير، بل حاول أن يحرر نفسه من بين ذراعي ويدون ويهاجم الرجل الذي يئن من الألم أمامه.

عاد مات ومعه مصباح رفعه عاليًا، ثم قال: «هكذا إذن! هذا يفسر غضب الذئب وثورته.»

كان بيوتي سميث مستلقيًا على الثلج، يمسك بقدمه عند موضع عضه فيه أبيض الناب، وعلى الرغم من أن جرحه لم يبد عميقًا، فقد استمر في الصراخ من شدة الألم.

قال ويدون: «انهض يا سميث، ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

تلعثم بيوتي وهو يرد: «أنا ... أنا ... أنا.» استمر أبيض الناب في الهرير، وأدرك سميث أنه في ورطة كبيرة، فأردف قائلًا: «احرص فقط على ألا ينفلت الذئب من يدك.»

سأله ويدون: «لماذا تحوم حول كوخنا في منتصف الليل، يا سميث؟ لا أظن أنها زيارة ودية.»

رد سميث وهو يئن: «أتيت ... أتيت لأستعيد ملكيتي؛ لأستعيد ذئبي!» وما إن نظر سميث إلى أبيض الناب حتى بدأ الذئب يزمجر ويهِرُّ ثانيةً.

ضحك منه ويدون: «هل تريدني حقًّا أن أتركه من يدي؟ هل تحب حقًّا أن تأخذ أبيض الناب معك إلى المنزل؟»

جاهد الكلب لكي يحرر نفسه من قبضة سيده وقد لمعت أنيابه في الظلام وانتصب شعر فروه.

عندئذ صرخ سميث: «لا ... لا ... لا، لا تتركه من يدك.» ووضع يديه على وجهه.

قال ويدون: «سيظل أبيض الناب حيث هو الآن، إن رحلت في هذه اللحظة.»

وأضاف مات: «وتذكر أننا لن نمنعه عنك إن حاولت فعل ذلك مجددًا.»

تمتم سميث، وحول وجهه عن الكوخ ثم بدأ يعرج في الاتجاه الذي جاء منه.

نادى ويدون على الذئب يدعوه إلى العودة إلى الشرفة قائلًا: «هلم يا فتى، أعتقد أنك ينبغي أن تنام بالداخل الليلة.»

قال مات: «الآن يا ويدون لا يمكنك أن تقلق من أن يحاول ذلك الجبان سميث أخذ الكلب ثانيةً، أليس كذلك؟»

اصطحب ويدون أبيض الناب إلى داخل الكوخ وأفسح له مكانًا بالقرب من المدفأة.
«نعم، قد يحاول بيوتي ثانيةً، لكن ما يقلقني أنه ربما لن نكون هنا المرة القادمة لنمنع الذئب من الهجوم عليه.»

جلس ويدون على كرسي، وأشعل غليونه، وقال: «لقد رأيتَه بالخارج، أعتقد أنه قد يقتل هذا الرجل.» عندها أخذ ويدون ينظر إلى الذئب الذي يمكن أن يكون شديد الرقة معه، وكان أبيض الناب قد ذهب في نوم عميق بجوار النار.

الفصل التاسع عشر

غياب ويدون

سارت حياة أبيض الناب مع سيده الجديد في دعة وسكون، فلم يكن يتعرض للضرب، وكانت هناك وفرة في الطعام وكثير من الكلمات الرقيقة. مع ذلك استغرق أبيض الناب وقتًا طويلًا حتى يتكيف مع تلك الحياة؛ إذ استمر في التكشير عن أنيابه في وجه غيره من الكلاب، وظل قلقًا من الأيادي التي تقترب منه أكثر مما يلزم. مع ذلك لم يحدث قط أن نفد صبر سيده بسبب ذلك، ورويدًا رويدًا تعلم أبيض الناب أن يتقبل هذه الحياة الجديدة، ومع أنه لم يكن يهز ذيله أو يعوي في فرح عند مجيء ويدون، فقد كان يعبر عن حبه بطرق أخرى، وحتى إن كان مات هو من يطعمه، فقد كان ولاؤه لويدون فقط.

أعاد مات أبيض الناب إلى العمل في جر المزلجة، وقد أحب الذئب جر المزلجة وكان يبذل قصارى جهده في ذلك سعيدًا به أيما سعادة. في كل يوم كان الفريق يتحرك من أجل إحضار بعض المؤن أو تفقد المنطقة، وكان هذا العمل أسهل بكثير من العمل مع جراي بيفر، فقد كانت المسافات التي يقطعونها أقصر، وكانت الأحمال كذلك أخف من ذي قبل. وقد أجاد العمل مع الكلاب الأخرى، لكنه كان ينأى بنفسه عن الاقتراب منها. وفي ذلك الوقت، لم تكن هناك أي معارك، فما كان مات ليسمح بذلك؛ إذ كان يباعد بين الحيوانات التي تُقدِم على العراك.

في صباح أحد الأيام، رحل ويدون على مزلجته، وكانت قد جرت عادته على قضاء النهار في العمل في مكان آخر، ولذلك لم يشعر أبيض الناب بالقلق. لكن هذه المرة لم يعد ويدون في المساء، واستمر اختفاؤه صباح اليوم التالي، ولم تبدُ على الرجل الثاني أي علامة للانزعاج. كان مات يقوم على تشغيل الكلاب كما هي العادة، فكان يصحبها إلى المدينة لإحضار المؤن ثم يعود. مع ذلك أخذ قلق أبيض الناب يتزايد مع مرور الوقت.

بعد أن ظل ويدون مختفيًا عدة أيام، رفض أبيض الناب أن يتناول الطعام، وجلس في شرفة الكوخ وشرع في الأنين. ضرب برجله على الباب الأمامي للكوخ عسى أن يفتح له سيده، لكنه لم يكن هناك. بدأ إحساس عدم الثقة المألوف لدى أبيض الناب يراوده ثانيةً. كان سيده قد اختفى، وشعر الذئب بالإهمال.

ساور مات القلق حول صحة الذئب فأدخله الكوخ، وكتب خطابًا إلى ويدون يخبره فيه عن أبيض الناب: «الذئب ممتنع عن العمل وعن تناول الطعام، ويريد أن يعرف أين أنت.»

استلقى أبيض الناب على الأرض بالقرب من الموقد دون أن يلتفت إلى الطعام أو إلى مات. حاول مات أن يتحدث إليه حديثًا رقيقًا، لكن لم يكن لذلك جدوى، إذ كان يريد ويدون.

وفي ساعة متأخرة في إحدى الليالي، فزع مات لصوت نحيب خفيض يصدر عن أبيض الناب الذي وقف على أقدامه أخيرًا. كانت أذنا الذئب قد انتصبتا للأمام ناحية الباب، وبعد دقيقة، كان هناك وقع أقدام في الشرفة. انفتح الباب، وإذا بويدون يقف أمامهما.

قال ويدون: «أين الذئب!»

كان أبيض الناب واقفًا بالقرب من الموقد، لكنه لم يندفع إلى الأمام كما فعلت الكلاب الأخرى، بل وقف في مكانه يراقب وينتظر.

قال مات: «يا إلهي، انظر إليه يهز ذيله الآن.»

عندها عبر ويدون الغرفة، ونزل على ركبتيه أمام ذئبه، وأخذ يمسح بيده فوق فروه بينما يهِرُّ الذئب بصوت خفيض.

بعد ذلك دفع أبيض الناب رأسه إلى الأمام فجأة، ووقف بين ذراعي سيده. أحاط ويدون بذراعيه الذئب الذي ظل يداعبه ويركن إلى حضنه.

كان أبيض الناب يتغير، فكان يتعلم أشياء تفعلها الكلاب الأخرى عفويًّا، كأن يهز ذيله ويحيي سيده عند الباب ويركن إلى حضنه؛ أي إنه كان يتعلم الحب.

الفصل العشرون

إلى كاليفورنيا

أحس أبيض الناب بأن أمرًا ما يوشك أن يقع؛ أمرًا لن يروق له. كان سيده يتصرف على نحو شديد الغرابة، وكانت الأشياء الموجودة حول الكوخ تُنقل وتُعبأ في صناديق وحقائب السيارات. لذلك بدأ أبيض الناب يشك في أن ويدون سيرحل ثانيةً.

قال مات: «استمع إلى ذلك!» كان أنينًا خفيضًا يشوبه الأسى يأتي عبر الباب من الشرفة الأمامية.

قال ويدون: «وماذا عساي أن أفعل! لا يمكنني اصطحاب الذئب إلى كاليفورنيا.»

عاد مات لحزم أمتعة صاحبه وهو يقول: «أنا لا أجادلك، لكن كل ما أقوله إنني أظن أن الذئب يفهمك جيدًا.»

أنصت ويدون إلى نحيب الذئب وكان ذلك شيئًا مروعًا، لكن ماذا يمكنه أن يفعل. لن يكون من الإنصاف أن يصحبه معه إلى الجنوب؛ فالجنوب ليس موطنه.

قال مات بعدما انتهى من غلق الحقيبة الأخيرة: «حسنًا، نحن جاهزون، هيا بنا نقلك إلى القارب.»

كان الرجلان قد وضعا خطة، فبينما كان مات ينقل الأشياء الأخيرة إلى الخارج، نادى ويدون أبيض الناب إلى الداخل.

قال له: «إني راحلٌ يا صديقي العزيز.» واغرورقت عيناه بالدموع. كان يعرف أن وداع الذئب سيكون صعبًا، لكنه لم يتوقع أن يبعث في نفسه كل ذلك الحزن. في النهاية ضم أبيض الناب إليه للمرة الأخيرة وهو يقول: «لا يمكنك أن تتبعني هذه المرة، والآن أعطني تحية الوداع، هرير الوداع الأخير إن صح!» ثم عانق أبيض الناب للمرة الأخيرة.

أسرع ويدون بالوقوف على قدميه وسار نحو الباب وأغلقه قبل أن يدرك أبيض الناب ما يجري. لم يلتف الرجل وراءه، فلم يقدر على ذلك، إذ كان أمرًا صعبًا.

مشى هو ومات على طول الطريق ليلحقا بالقارب، منصتين في تلك الأثناء إلى عواء أبيض الناب من خلفهما. كان الذئب محتجزًا داخل الكوخ يحاول الخروج منه، فقد سمع الرجلان وهما في الطريق صوت احتكاك أقدامه بالباب الأمامي.

ساعد مات ويدون على وضع حقائبه على متن القارب، ثم قال ويدون: «ستعتني به جيدًا يا مات، أليس كذلك؟ وستكتب إليّ رسائل تعلمني فيها بأحواله.»

أجابه مات: «لا شك في ذلك. كل أملي أن يسامحني عندما أعود إلى الكوخ.»

كانت هناك بعض الجلبة على متن القارب، وبدأ الأفراد القريبين منهما في الهمس والغمز. ذهل مات لما رأى؛ فقد كان أبيض الناب يجلس على بعد بضع خطوات منهما.

تعجب مات للغاية، وسأل ويدون: «هل أغلقت الباب؟»

فأومأ ويدون برأسه.

مشى أبيض الناب في حذر شديد نحو سيده، وجلس عند قدميه. تفحص ويدون الذئب، ولاحظ بعض الجروح الجديدة على وجهه وفروه المتشابك.

قال ويدون في عجب: «نسينا شيئًا واحدًا؛ نسينا إغلاق النافذة.» ونظر إلى مات ثم أردف: «لقد قفز من النافذة ليتبعنا.»

رد مات: «حسنًا، سوف ...»

وقف ويدون وعلى وجهه ابتسامة، وقال: «لا تقلق بشأن الرسائل التي ستكتبها لي عن الذئب يا مات، فسأكتب لك عنه بدلًا من ذلك.»

– «ماذا؟! ويدون لا بد أنك تمزح ...»

«بل إني جاد للغاية.»، ثم التفت، وانحنى على الذئب يمسح على بطنه ويحك ما وراء أذنيه: «سيصحبني أبيض الناب إلى المنزل.»

الفصل الحادي والعشرون

منزل ويدون

وصل القارب سان فرانسيسكو حاملًا ويدون سكوت وأبيض الناب على متنه. ترجل الاثنان من على القارب إلى مرسى شديد الازدحام. لم يكن أبيض الناب قد عرف في حياته قط عالمًا كهذا العالم، فقد كانت المدينة كبيرة للغاية على ذئب بري؛ انتشرت الطرق الخرسانية والبنايات العالية والسيارات وجموع الناس في كل حدب وصوب. وكانت هناك أيضًا الكثير من الروائح والكثير من الناس وكذلك الكثير من الأشياء التي يمكن تعلمها. وكان يخشى جميع أشكال الضوضاء المحيطة به. اعترض طريقه أعداد كثيرة من البشر، وفقد إحساسه بالاتجاهات فلم يعرف أي طريق يسلك. أصابه الذعر من أنه قد لا يرى سيده ثانيةً، فقد كان معتمدًا عليه اعتمادًا كليًّا، لذلك كان يتبعه كظله، حتى إن الكلاب الأخرى والأطفال لم تكن لتصرف انتباهه عنه.

لحسن الحظ أنهما لم يمكثا في المدينة طويلًا، فقد انطبعت ذكراها في ذهن أبيض الناب على أنها حلم مزعج. اصطحبه ويدون إلى محطة القطار، ووضعه في إحدى عربات الأمتعة. وعندما أُغلقت أبواب العربة الحديدية ولم يكن ويدون معه، خاف أن يكون قد فقد سيده. جلس قرب حقائب سيده، يحرسها جيدًا. فحتى لو فقد سيده، سوف يتأكد أن حقائبه في أمان. كان يدرك على نحو ما أن سيده سيعود للبحث عنه.

لم تمض إلا ساعة واحدة حتى فتحت الأبواب الحديدية ثانيةً وظهر أبيض الناب من العربة. تملكه الذهول عندما لم ير المدينة. لقد عاد إلى مقاطعة أكثر ألفة له، على الرغم من أنها لم تكن كموطنه. كانت جميع مظاهر حياة المدينة وأصواتها قد اختفت، وحل محلها ريف به كثير من النباتات والأشجار العالية. لم تكن هناك أشجار عالية في الشمال، ولم يكن أبيض الناب قد رأى من قبل قط تلالًا مموجة أو غابات خضراء كهذه. كانت كاليفورنيا مكانًا شديد الاختلاف.

كانت هناك عربة تنتظرهما، واقترب شخصان من ويدون. راقب أبيض الناب المشهد في فزع شديد بينما يحيط هذان الشخصان سيده بذراعيهما. عانقه كل منهما على حدة، فظن أبيض الناب أن سيده يتعرض للهجوم. إلا أن ويدون أسرع يطمئن الذئب الذي صار كالشيطان الغاضب.

قال ويدون بعد أن أحكم إمساك أبيض الناب: «لا بأس يا أمي. لقد ظن أنكما تحاولان إيذائي. لا تقلقا، فسيتعلم كل شيء قريبًا.»

ردت الأم: «في الوقت الحالي، سأتعلم أن أحتضن ولدي عندما لا يكون الذئب موجودًا.» ثم ضحكت لكن بدا واضحًا للغاية أنها كانت شديدة الاضطراب.

أجلس ويدون أبيض الناب في هدوء، واحتضن أمه ثانيةً، وعندما بدأ الذئب في الزمجرة ثانيةً، حذره ويدون قائلًا: «اهدأ! اهدأ!» في النهاية، تعلم أبيض الناب أن يجلس في هدوء بينما يحتضن سيده والديه، فقد أدرك أنه لا خطر في ذلك.

رُفعت الحقائب على العربة، وانطلق الجميع على الطريق يعدو خلفهم أبيض الناب. كان الذئب سعيدًا بالعدو، فقد كانت رحلة القارب الطويلة شاقة على نفسه، ولم يكن معتادًا على مثل هذه المساحات الصغيرة حيث لا يمكنه التجول واستكشاف البيئة المحيطة. أما وقد بات حرًّا طليقًا ثانيةً، فقد أخذ يعدو بكل ما أوتي من قوة. بدت هذه الأرض الجديدة شديدة الروعة، وكثرت بها المناظر والأصوات الجديدة. أراد الذئب أن يعدو داخل الغابة لينظر ما يمكنه أن يجد هنالك، لكنه أراد ألا يفقد أثر سيده. بعد خمس عشرة دقيقة، انعطفت العربة في أحد الطرق الخاصة، وتبعها أبيض الناب.

خرج آخرون من المنزل لتحيتهم، ومن بينهم طفلان صغيران. أقلق ذلك أبيض الناب فقرر الابتعاد عنهما، فغالبًا ما كان الأطفال في قرية الهنود الحمر يضايقونه أو يؤذونه، وكان الأطفال في «فورت يوكون» يرمونه بالعصي والأحجار. ولحسن حظه، كان هذان الطفلان أكثر اهتمامًا بعودة أبيهما، فلم يلتفتا إلى الذئب.

انزعج أبيض الناب من كلبي المزرعة اللذين استقبلاه بالنباح والزمجرة، وقد عضه أحدهما — وهو كلب صيد — في عقبه وقت عدوه خلف العربة، بينما اعترض الآخر — وهي كلبة من سلالة الكولي — سبيله دائمًا، فلم تكن لتتركه يقترب كثيرًا من الأسرة. بذلك أُبعد أبيض الناب عن سيده، وكان شعوره بالذعر أكبر من شعوره بالغضب. كان يرى سيده على بعد بضعة أمتار، ولا يستطيع الوصول إليه، فكان يحاول الاتجاه يمينًا أو يسارًا، لكن دون جدوى، إذ كانت كلبة الكولي دائمًا هناك.

نظر ويدون خلفه فرأى معاناة أبيض الناب.

على الفور نادى: «كولي، توقفي عن ذلك.» وسرعان ما توقفت كولي ليشق أبيض الناب طريقه إلى سيده.

عندها قال القاضي سكوت، والد ويدون: «حسنًا، من الواضح أنه متعلق بك للغاية، وإني لمنبهر لذلك.»

رد ويدون وهو يربت على رأس أبيض الناب: «إنه يتعلم بسرعة، لكن ينبغي الحذر من عضته الأولى؛ فهو يثق بي، غير أنه ليس له تجارب كثيرة مع الآخرين؛ أعني الطيبين منهم على الأقل.»

قال القاضي سكوت: «هيا ندخل المنزل، فلا بد أن العشاء قد صار جاهزًا الآن. سنصحب الكولي معنا إلى الداخل ونترك أبيض الناب وكلب الصيد هنا.» بدأت الأسرة تتجه نحو المنزل، وكان أبيض الناب يراقب ويدون جيدًا.

ابتسم ويدون قائلًا: «أعتقد أنه ينبغي بقاء أبيض الناب معنا، وإلا فقدنا كلب الصيد الذي نملكه.»

نظر والده إلى الذئب، وتذكر زمجرته عند محطة القطار. وقف أبيض الناب على مقربة من ويدون يضمن الحماية له، فأضاف الوالد: «ربما كنت محقًّا يا بني، ربما كنت محقًّا.»

الفصل الثاني والعشرون

قفص الدجاج

كانت حياة أبيض الناب مع جراي بيفر قد علمته أن عليه أن يحمي ممتلكات سيده؛ لذلك دهش كثيرًا عندما عاقبه ويدون لهجومه على أحد الغرباء، وكان قد عض هذا الرجل عضة صغيرة في يده، لكن ويدون كان غاضبًا جدًّا، بل زاد على ذلك أن نبحت الكولي في وجهه وهمت بعضه.

لم يكن أبيض الناب يعرف أي شيء عن ساسة الخيول أو عمال المزرعة. لذلك عندما رأى رجلًا غريبًا يدخل إلى الحظيرة ويأخذ شيئًا ما، ظنه لصًّا. أطلق ذلك الصبي المسكين — الذي لم يأت إلا لأداء عمله وتنظيف الحظيرة — صرخة مدوية عندما عدا أبيض الناب نحوه.

كانت كلبة الكولي أول من شاهدت ما يجري؛ لذلك عضت عقب الذئب، بل واستمرت في النباح والعض حتى ترك الفتى لحاله، وكان من حسن الحظ أن عض أبيض الناب ذراع الفتى فقط كنوع من التحذير. لم يُصَب سائس الخيول بأذى بالغ، غير أنه كان خائفًا للغاية مما منعه أن يعود إلى مزرعة آل سكوت ثانية.

كانت الحياة في المزرعة لا تشبه أي شيء مر به أبيض الناب في حياته، ففي الفترة الأولى، توقع أبيض الناب أن يحدث شيء مرعب، كمجاعة أو ضرب أو هجوم من نوع ما، ومع ذلك لم يحدث أي شيء. على العكس من ذلك، سُمح له أن يعدو حول المزرعة، وكان الجميع ودودين معه. ولم يكن الحال يسيرًا مع الكلاب الأخرى — خاصةً مع كلبة الكولي — لكنه لم تكن هناك أي معارك حامية، فقد كانوا يراقبون بعضهم بعضًا عن كثب، لكن أحدًا منهم لم يقترب من الآخر.

كان للطفلين شأن آخر، فتجاربه مع الأطفال في معسكر الهنود الحمر أو في «فورت يوكون» لم تكن جيدةً، إذ كان أولئك الأطفال يسخرون منه ويضايقونه، وكان أبيض

الناب قد تعلم ألا يثق فيهم. غير أن طفلي ويدون كانا أكثر رقة من أولئك الأطفال. وقد أدرك الذئب أن هذين الطفلين ينتميان إلى سيده، لذلك لم يكن بمقدوره أن يلحق بهما أي أذى. وفي النهاية، تعلم أبيض الناب ألا ينزعج عندما يمسان فراءه بأياديهما، بل وتعلم أن يحب كلماتهما الرقيقة.

لم يكن أبيض الناب يدرك أن بعض الأفراد يربون الحيوانات في المزرعة، فعندما رأى قفص الدجاج مكتظًا بالدجاج، لم يدرك أن هذا الدجاج ليس ملكًا له. لذلك فور أن رأى الباب مفتوحًا، دخل إلى القفص، وصرع اثنتين من الدجاج، لكن والدي ويدون لم يتساهلا مع ذلك الأمر.

غضبت السيدة ويدون لذلك غضبًا شديدًا، وعلى الفور هرعت إلى الشرفة الأمامية لتواجه ابنها بما حدث: «اقتحم ذئبك قفص الدجاج!»

اعتذر ويدون لأمه عما حدث مخبرًا إياها أن ذلك لن يحدث ثانيةً، وانطلق للبحث عن أبيض الناب.

ضحك والده قائلًا: «لن يحدث ثانيةً! هل تحاول أن تقول إن بإمكانك أن تثني ذئبًا بريًّا عن صيد دجاجنا؟»

رد عليه ويدون متحديًا: «نعم، أقول ذلك، ألا تصدقني؟»

فهز والده رأسه قائلًا: «اعذرني يا بني إن كنت لا أصدقك؛ لكن الذئب ذئبٌ.»

رد ويدون: «إذن، سأثبت أنك مخطئ يا أبي.»

بعد ذلك شرع ويدون في مغادرة المكان، لكنه توقف قائلًا: «لنتراهن فيما بيننا يا أبي، بعد أن أعلِّم أبيض الناب، سأراهن على أن بإمكانه أن يمكث في قفص الدجاج طوال الظهيرة دون أن يقتل طيرًا واحدًا.»

ضحك والده: «هذا أسهل رهان عقدته في حياتي يا ولدي العزيز.»

أضاف ويدون: «ومقابل كل عشر دقائق يقضيها داخل القفص دون أن يقتل طائرًا واحدًا، ستقول له: «أبيض الناب، أنت أذكى مما ظننت.»»

وافق القاضي سكوت على الشروط.

لم يتمكن ويدون من معاقبة أبيض الناب حينها. كان عليه أن يمسك به أثناء فعله ذلك، لذا عندما وجد الذئب ومعه طائر ميت، تحدث إليه في حدة، وكان في صوته غضبٌ وقسوة. بعد ذلك أمسك بمنخاره، ودنا به نحو الدجاجة القتيلة، وصفعه صفعة قوية. لم يكن ويدون قد ضربه من قبل قط، لذلك عرف الذئب أن الأمر جاد.

وهكذا عندما وجد نفسه داخل قفص الدجاج ساعات عديدة، انتظر في هدوء حتى يطلق سراحه، وقد أدرك أنه لا يمكن أن يمس الدجاج. الأمر الذي أثار حيرته أنه حين كان جالسًا في الشرفة الأمامية بعد ذلك، جلس الرجل الكبير بجواره يعيد عليه الكلمات نفسها مرارًا وتكرارًا. انخرط الجميع في الضحك، لكن أبيض الناب عرف أنه لم يكن مقصودًا بهذا الضحك، وأنه لم يكن بقصد إيذائه أو السخرية منه.

بعد طول انتظار، تعلم أبيض الناب أن يحب صوت الضحك، ولم يحدث قط أن أغار على قفص الدجاج ثانيةً.

الفصل الثالث والعشرون

إصابة ويدون

متى ذهب ويدون في مهمة أو ذهب إلى المدينة، ذهب أبيض الناب معه. كان سيده يركب جواده أو عربة بينما يتبعه أبيض الناب على أقدامه.

كان الذئب قد تخلى عن عاداته القديمة، فقد طرأ عليه تغير كبير منذ الأيام التي كان يتجول فيها في شوارع «فورت يوكون». هو الآن بصحبة ويدون، ويعرف أنه لا يجب أن يهجم على الكلاب الأخرى، إذ لم يكن مسموحًا بالعراك.

كان الأمر يزداد صعوبة عندما تهاجمه الكلاب الأخرى في المدينة، إذ حاول أن يتجاهلها لكنها لم تكن تكف عنه. وكانت هذه الكلاب تعضه في عقبه وتحاول أن تسقطه أرضًا، وبين الحين والآخر، كان الذئب يستدير إليها ويزمجر في وجهها. غير أن ذلك كله لم يُجدِ نفعًا؛ ففي كل مرة يذهب فيها ويدون إلى المدينة، كانت الكلاب تضايق أبيض الناب.

استمر ذلك أسابيع قبل أن يلاحظه ويدون، وبينما يجري أبيض الناب خلف عربة سيده ذات مرة، وبعيدًا عن الكلاب، إذ توقفت العربة، ونزل ويدون منها، وأخبر أبيض الناب أنه لا بأس في رد تلك الكلاب.

قال ويدون: «اذهب يا فتى، يمكنك النيل من هذه الكلاب.»

نظر أبيض الناب إلى سيده وقد علاه الاضطراب، أيذهب لينال من هذه الكلاب؟

– «لا بأس. بإمكانك الذهاب والنيل منها.»

تحول أبيض الناب وانطلق خلف الكلاب، وأخذ يطاردها على طول الشارع لتكون هذه آخر المرات التي تزعجه فيها.

هكذا كان الحال مع ويدون سكوت؛ فلم يكن سريع الغضب، لكنه دائمًا وفي هدوء تام كان يهرع لنجدة أبيض الناب. عندما كان الأطفال يقذفون الذئب بالعصي والأحجار،

كان ويدون يوقفهم. وبعد موجة من التوبيخ القاسي في إحدى المرات، لم يعد الأطفال إلى ذلك ثانيةً.

كذلك كان أبيض الناب يتبع سيده عندما كان يخرج في رحلة على ظهر الجواد في الريف، فكانا يعدوان معًا لساعات. توفر لدى الذئب وقت طويل يقضيه في العدو بين الأشجار ومطاردة السناجب، وقد ذكره ذلك بالصيد مع أمه في البرية. كانت هذه الأيام قبل لقائه بيوتي سميث وجراي بيفر. وعلى الرغم من أنه لم يعرف الكلمات التي يصف بها مشاعره، فقد أدرك أبيض الناب أنه كان سعيدًا.

وذات يوم وقعت كارثة؛ إذ اختل توازن جواد ويدون، وسقط أرضًا، فوقع ويدون من فوق الجواد الذي انقلب فوقه. عندئذ كُسرت ساق ويدون، ولم يستطع القيام.

جرى أبيض الناب إلى سيده، وأخذ يتشممه ويئن محاولًا أن يشجعه على النهوض.

قال ويدن: «إلى البيت! اذهب إلى البيت!»

استغرق الذئب بضع دقائق لفهم ما يقوله سيده، فركض باتجاه المنزل، ثم عاد إلى سيده وقد أخذه العجب لمّا رآه في المكان نفسه. هنا قال له ويدون في رقة: «لا بأس، ارجع إلى البيت الآن.»

قطع أبيض الناب الطريق المؤدية إلى البيت في سرعة متناهية.

كانت عائلة سكوت تجلس في الشرفة، فصعد أبيض الناب السلالم في سرعة كبيرة حتى إنه كاد أن يسقط زوجة ويدون أرضًا.

تعجبت السيدة كثيرًا: «يا للعجب! ما الذي يمكن أن يكون قد حل به؟»

غادر أبيض الناب الشرفة ثم عاد إليها، وكان غاية في الهيجان حتى إنه أخاف الأطفال.

على الفور قالت أم ويدون: «يجب أن أعترف أن هذا الذئب يجعلني قلقة على الطفلين.»

بدأ أبيض الناب ينبح.

قال القاضي سكوت: «الذئب ذئب، ولا يمكن الوثوق به.» ثم عاد إلى قراءة جريدته.

تحرك أبيض الناب من شخص إلى آخر، وأخذ يكِزُهم، ثم جرى بعد ذلك ناحية الطريق.

وقفت زوجة ويدون قائلةً: «لكن إن كان أبيض الناب قد عاد، فأين ويدون؟ لم يكن أبيض الناب ليتركه إلا إن كان مكروهٌ قد وقع.»

وقف الجميع في ذلك الوقت، وكانت هذه هي المرة الثانية والأخيرة التي ينبح فيها أبيض الناب، ويُفهم المغزى من وراء نباحه.

عثرت الأسرة على ويدون، وأحضروه إلى المنزل. وبعد ذلك، شغل أبيض الناب مكانة خاصة في قلب كل فرد من أفراد الأسرة، حتى إن الكلبة الكولي نفسها قد باتت أكثر رقة من ذي قبل في تعاملها معه؛ فقد تركته يعدو بصحبتها في الغابة أو حول فناء المزرعة، تمامًا كما كانت الكلبة الحمراء تفعل مع الذئب الأعور قبل أعوام. ومنذ ذلك الحين، لم يشك أحد في أن الذئب قد يتغير.

الفصل الرابع والعشرون

انتقام جيم هول

لم تنته مغامرات أبيض الناب بعد، فقد كانت هناك مفاجأة أخرى في انتظاره.

كان سجين خطير وقاسي القلب اسمه جيم هول قد هرب من أحد السجون المجاورة للمزرعة، حيث كان يقضي حكمًا بالسجن خمسين عامًا. كان القاضي سكوت قد أصدر هذا الحكم ضده لجرائمه ومخالفاته الكثيرة، وكان جيم قد أقسم أن ينتقم من القاضي.

عندما وردت أخبار هروب جيم أسرة القاضي سكوت، انتاب الجميع قلقٌ شديدٌ عدا القاضي الذي لم يكن يظن أن هول سيؤذيه، وإنما قال: «ستلقي الشرطة القبض عليه قريبًا، فلا داعي للقلق.»

ظنت زوجة ويدون أن الأسرة بحاجة إلى مزيد من الحماية. كان من الجيد أن تبعد القلق عن أفراد الأسرة، لكنها لم تكن لتخاطر. لذلك كانت في كل ليلة، بعد أن ينام الجميع، تُدخل أبيض الناب إلى المنزل. وكان الذئب ينام في الردهة الأمامية ليقوم على حراسة المنزل. وفي الصباح، قبل أن يستيقظ أي فرد من أفراد الأسرة، كانت تُخرجه من المنزل.

ذات ليلة اشتم أبيض الناب رائحة غريبة، وجال بخاطره أن شيئًا خطيرًا يقع بالمنزل. وعلى الفور سار على مهل إلى السلم ليرى رجلًا.

انتقل الغريب في هدوء إلى أحد الأركان، ومكث على مقربة شديدة من الحائط دون أن يصدر أي صوت أثناء سيره. وفي الوقت الذي رفع فيه الرجل قدمه ليصعد درج السلم، عاجله أبيض الناب بالهجوم.

صرخ الرجل على الفور، إذ كانت أسنان أبيض الناب قد غاصت في قدمه. جره أبيض الناب من فوق الدَرَج وطرحه أرضًا. كانت ردهة المنزل مظلمة، ولم يتمكن الرجل

من رؤية مهاجمه، وهكذا استمر الاثنان في التدحرج فوق السجادة حتى سُمع إطلاق الرصاص ثلاث مرات لتنتهي المعركة بعده.

استيقظ جميع من بالمنزل وعدوا إلى الردهة الأمامية. أضاء ويدون الأنوار ليرى جيم هول مستلقيًا على السجادة وقد فارق الحياة وبجانبه أبيض الناب يلتقط أنفاسًا بطيئة للغاية.

جرى ويدون نحوه، وصرخ: «أبيض الناب!»

هر الذئب هريرًا خفيضًا، وحاول النظر إلى سيده، لكنه لم يمتلك القوة الكافية لذلك.

قال ويدون وهو يربت على رأس الذئب: «أنا هنا، لا تقلق، فسنجلب لك المساعدة اللازمة.»

ركب القاضي سكوت العربة إلى المدينة لكي يخطر الشرطة ويحضر طبيبًا لأبيض الناب. ومع انكسار أول خيط لضوء الفجر، كان جميع أفراد الأسرة ينتظرون في قلق شديد تقريرًا عن حالة أبيض الناب.

قال الطبيب: «هناك كسر في ثلاثة من أضلاعه وفي إحدى قدميه الخلفيتين، وثلاثة ثقوب أحدثتها طلقات الرصاص. يحزنني أن أخبركم بأن نجاته غاية في الصعوبة.»

قال القاضي: «لا تهتم بالتكاليف، عالج ذلك الذئب كما لو كنت ستفعل مع أي بطل. إننا ندين له بحياتنا.» قال الطبيب إنه يفهم ذلك جيدًا وإنه سيشرع في مداواة الذئب.

جلس جميع أفراد عائلة سكوت في هدوء تام داخل حجرة المعيشة، وأخذت زوجة ويدون تبكي وتدعو الله أن ينقذ حياة أبيض الناب. لم يرغب أحد في أن يفكر فيما قد يحدث دون وجود ذئبهم إلى جانبهم، بل لم يرغب أيٌّ منهم في أن يفكر كيف ستبدو الحياة إن لم ينج ذئبهم الحبيب.

جلس ويدون بجوار النافذة بمفرده يبكي بينه وبين نفسه، وهمس قائلًا: «أرجوك يا فتى. تمسك بالحياة، فبإمكانك النجاة. لا تخذلني!»

عاد الطبيب بعد فترة، ومن حسن الحظ أنه كان يحمل أخبارًا سعيدة، فقال:

– «لقد اجتاز ذئبكم العملية في نجاح.»

صفق طفلا ويدون، وربَّت أبوه على ظهره، ثم قال: «الحمد لله أيها الطبيب، هذه أسعد لحظات حياتنا جميعًا.»

سأل ويدون الطبيب: «هل يمكنني أن أراه؟»

رد الطبيب: «إنه لا يزال نائمًا، لكن يمكنك أن تدخل وتطمئن عليه إن شئت. وعليك أن تعلم أن فترة شفائه ستكون طويلة جدًّا، فقد كان بداخله ثلاث طلقات، وسيستغرق الأمر وقتًا طويلًا لكي يتماثل للشفاء، وسنشد عليه جبيرة بعض الوقت أيضًا.»

احتضن ويدون الطبيب قائلًا: «ستتحسن حالته على كل الأحوال. يمكنني أن أشعر بذلك.»

ذهب ويدون ليرى الذئب. كانت حجرة الطعام قد تحولت إلى غرفة عمليات مؤقتة، وكان أبيض الناب يستلقي على جانبه على المنضدة وقد لُف قفصه الصدري بضمادات، وشدت على قدمه جبيرة. غير أن الذئب لم يبدُ مريضًا، بل بدا كالغارق في نوم عميق هانئ.

همس ويدون إلى الذئب النائم: «إذن، ما قولك أيها الفتى الكبير؛ هل نجعل من تلك الحادثة آخر مغامراتنا؟ ما رأيك أن نعيش عيشة هادئة هانئة بعد ذلك؟»

الفصل الخامس والعشرون

أسرة مستقلة

لم يمكث أبيض الناب وحده قط، فعندما أفاق من عمليته الجراحية، كان ويدون إلى يمينه يتحدث إليه. في البداية كان أبيض الناب قلقًا ومضطربًا، وآخر ما يذكره هو ذلك الرجل الغريب عند مدخل المنزل. حاول أن يقوم من مرقده حتى يتسنى له التأكد من أن المنزل بأمان، لكنه لم يستطع الوقوف على أقدامه.

قال له سيده: «ابق هنا حيث أنت، فكل شيء على ما يرام.»

كان صوت سيده هادئًا رقيقًا، كما كان صوته في المرة الأولى التي تحدث فيها إلى الذئب في «نورثلاند» قبل أن يستأنسه. ظن أبيض الناب أن الخطر قد زال لأنه لم تبدُ على سيده علامات الغضب أو القلق. لذلك غاص في النوم ثانيةً؛ إذ تمكن أخيرًا من أن يحظى بفترة راحة طويلة لا يقطعها أي قلق.

أمعن ويدون وأسرته في الاهتمام بأبيض الناب، فكانت زوجته تطعمه بيديها، وأحضر له طفلاه بطاطين، وكانا يربتان على رأسه في رقة. أما القاضي سكوت وزوجته فقد كانا يطمئنان أنه بخير كلما أتيحت لهما الفرصة لذلك، فيما لم يفارقه ويدون إلا نادرًا.

أخيرًا جاء اليوم الذي أزال فيه الطبيب الجبيرة، وكان أبيض الناب المسكين لا يزال منهكًا، لكنه استطاع أن يتحرك. في البداية لم يقدر على السير إلا من غرفة إلى أخرى فحسب؛ فقد كان متعبًا جدًّا حتى إنه اضطر إلى أن يلزم الفراش ثانيةً. وفي النهاية تمكن من السير مسافات أبعد، بل غامر بالخروج من المنزل.

قال ويدون: «سيكون اليوم يومًا حافلًا لك يا عزيزي.»

أخذ ويدون يحك أذني أبيض الناب الذي استكان على ذراع سيده وأرسل أنينًا رقيقًا.

– «سنذهب إلى الحظيرة، فأنا أريدك أن تلتقي شخصًا ما.»

كانت الأسرة كلها تغمرها سعادة تامة، وسلكوا جميعًا الحديقة الخلفية، الأمر الذي استغرق وقتًا طويلًا من أبيض الناب، لكنه نجح في ذلك في النهاية.

وداخل الحظيرة كانت كلبة الكولي مستلقية على فُرُشٍ من القش وإلى جوارها ستة جراء صغيرة. كان اثنان من الجراء رماديي اللون ويشبهان والدهما تمامًا. نبحت الكلبة عندما دخل أفراد الأسرة إلى الحظيرة لتحذرهم جميعًا من إلحاق أي أذى بصغارها.

سار أبيض الناب إلى عائلته الجديدة، واستلقى على القش متجاهلًا تمامًا نباح الكلبة. وقف ويدون وأسرته عند مدخل الحظيرة ينظرون إلى الجراء الصغيرة وإلى أبويها. تمدد أحد الجراء أمام أبيض الناب الذي أطرق أذنيه ونظر إلى الجرو، ثم تلامس أنفاهما. شعر أبيض الناب بذلك اللسان الصغير الدافئ على فمه، فأخرج لسانه بدوره ولعق وجه الجرو.

عندئذ تعالت أصوات عائلة سكوت بالتصفيق وصيحات الفرح، وكان أبيض الناب مندهشًا، فنظر إليهم في استغراب شديد.

جاءت الجراء الأخرى تزحف ناحية أبيض الناب، وهو ما أزعج كلبة الكولي في البداية، لكنها لم تمنعها من ذلك، إذ كانت تدرك أن أبيض الناب لن يؤذي جراءها، وسرعان ما شرعت الجراء في تسلق ظهر أبيها.

في البداية شعر أبيض الناب بالغرابة تجاه كل ذلك الاهتمام، وانتابه القلق من أن الجراء قد تؤذي جانبه المصاب، لكن ذلك كله اختفى مع استمرار الجراء في اللعب والإتيان بأفعال تثير الضحك. هنا استسلم أبيض الناب لنعاس خفيف أسفل ضوء الشمس، كانت فيه عيناه نصف مغمضتين.

لم يتمكن أبيض الناب من وصف مشاعره. فحياته قبل ويدون سكوت — حياة الضرب والمشقة والمعارك — صارت ذكرى ضبابية بعيدة. وهكذا أمضى ما تبقى من حياته مع آل سكوت في مزرعتهم، ولم تشهد حياته أي كوارث أو مغامرات كبرى بعد ذلك. وبعد طول عناء، بات الآن آمنًا مطمئنًا يشعر بالحب، حتى لو لم يكن يعرف الكلمة التي يصف بها هذا الشعور.


هنداوي